
sharif mahmoud
الاتحاد العام
للفنانين العرب
جارودي
الأساطير الزائفة
وانتصار الانسان
تحرير : د. عبد الوهاب المسيري
إشترك في الكتاب
• بهاء طاهر
• فهمي هويدي
• فؤاد السعيد

جارودي

الأساطير الزائفة وانتصار الإنسان

تحرير د . عبد الوهاب المسيري

فهرس

رقم الصفحة

جارودي في القاهرة
ليفضح أساطير إسرائيل المزيفة

أ . سعد الدين وهبة ★

لا أعتقد أن فيلسوفاً كبيراً أو مفكراً واسع الأفق يملك ناصية المنطق والمعرفة والتاريخ في وزن المفكر الفرنسي روجيه جارودي قد تعرض لما يتعرض له الفيلسوف الكبير من اضطهاد وهجوم وحصار منذ سقط في العالم قانون الغاية وأصبحت هناك مؤسسات دولية ومحلية تدافع عن حقوق الإنسان وتحاول أن تقف في صف حرية الفكر والاعتقاد وفي كل مكان في العالم وتبلغ المأساة قمتها عندما تكون ثورة الاضطهاد ووقوع كل أنواع العسف والظلم من العاصمة التي تتيه على العالم أجمع بوصفها مدينة النور ورافعة لواء حرية الفكر وبالثورة التي نادت بالحرية والعدالة والمساواة ، في هذه العاصمة وبعد مسيرة العالم وجهاد أبنائه تُذبح الحرية وتُقتل الحضارة وتُصلب المساواة على صليب أقامته الصهيونية العالمية وحلفائها من المثقفين المضلَّلين والمضلِّون في نفس الوقت ، ولماذا هذا الذي يحدث ؟ لم يتعرض جارودي للدين اليهودي بل أعلن عشرات المرات أنه يحترم اليهودية ديناً مقدّساً كما يعترف بها المسيحيون والمسلمون في كل مكان ، لم يتعرض للسامية بل نفى بشكل قاطع أنه من أعداء السامية . كل الذي فعله جارودي أنه مس قدس الأقداس وهو السياسة الصهيونية وأطماع إسرائيل وأنه تجرأ فكشف عن الضلال والزيف وعن الكذب والتزوير فاستحق كل ما يجري له في عاصمة النور التي تحتفي

★ رئيس اتحاد الفنانين العرب

بسلمان رشدي وتصنع له الطبعات الشعبية حتى ينتشر طعنه في الإسلام ذلك لأن المساواة تقتضي توسيع نطاق الهجوم على الإسلام والغضب عندما نذكر الحقيقية في وجه الصهيونية .

هوجم جارودي وهوجم الأب بيير الذي دافع عنه وامتنع الناشرون عن طبع كتابه فقدِّم للمحاكمة وامتنع عليه أن يدافع عن نفسه وهوجم كل من تعرض له .

إن ما يحدث لجارودي يُصور محنة الإنسان في ظل النظام العالمي الجديد ، نظام الجبن والخوف من الصهيونية وتقديس الباطل والصلاة للاستعمار الجديد ...

من أجل ذلك كان لابد أن يأتي جارودي للقاهرة ليرفع صوته وليحس أن في العالم شعوب ما زالت تقدس الحقيقة وتقف في وجه الظلم والزيف والضلال .

تقــديم

يتكون هذا الكتاب من أربعة مقالات ، يتناول المقالان الأول والثاني (أ . فؤاد السعيد و د . عبد الوهاب المسيري) رؤية جارودي وتطورها ، وقد كُتِبا خصيصاً لهذا الكتاب الذي يصدر بمناسبة زيارة جارودي لمصر بدعوة من اتحاد الفنانين العرب . أما المقالان الثالث والرابع (أ . بهاء طاهر و أ . فهمي هويدي) فيتناولان كتابه الأخير **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** والحملة التي شُنت على جارودي بعد صدوره . وقد نُشِرا في **الهلال** (سبتمبر ١٩٩٦) و **الأهرام** (٧مايو ١٩٩٦) . وقد أعد الأستاذ فؤاد السعيد قائمة بأعمال جارودي التي تُرجِمت إلى العربية .

د . عبد الوهاب المسيري

القاهرة ٨ أكتوبر ١٩٩٦

شاهد على العصر

فؤاد السعيد ★

لم تكن الحملة الشرسة التي يشنها الإعلام الصهيوني في الغرب ضد جارودي هي الأولى من نوعها ، ولن تكون الأخيرة . ففي عام ١٩٨٢ أقام البارون دي روتشيلد رئيس مجلس الجالية اليهودية في فرنسا دعوى على جارودي بسبب نشر إعلان مع اثنين من رجال الدين الفرنسيين هما الأب ميشال لولون والأب إتيان ماتيو في صفحة كاملة من جريدة **اللوموند** ، تحت عنوان «بعد المذابح في لبنان : جوهر العدوان الإسرائيلي» .

لم يتضمن الإعلان شعارات سياسية بل كان بمنزلة دراسة فكرية جادة ، تدحض دعاوى إسرائيل من أساسها . ولقد عِرُف فيما بعد أن السبب الحقيقي لرفع الدعوى هو ما عُرِف في دوائر النشر من أن جارودي بصدد نشر كتاب هام بعنوان **ملف إسرائيل : دراسة للصهيونية السياسية** ، وهو الكتاب الذي كان بمثابة التمهيد لكتابه الراهن **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** ، والذي يتعرض حالياً لحملة أشد وأعتى من الحملة السابقة .

من الأيديولوجيا إلى رؤى الوجود

وإذا كان جارودي واحداً من بين العديد من الباحثين المنصفين شرقاً

★ باحث في المركز القومي للبحوث الاجتماعية

وغرباً ، الذين توصلوا إلى استنتاجات وأحكام موضوعية حول الإدعاءات الصهيونية المُبالغ فيها حول ما تَعرَّض له اليهود أثناء حكم النازي وقبله وبعده ، فيمكن تفسير اختصاصه بتلك الحملة المنظمة في الإعلام وأمام القضاء من خلال مدخلين ؛ الأول هو تلك القدرة الكبيرة التي يتمتع بها الرجل على التواصل الفكري والإعلامي مع قاعدة واسعة من القُرّاء شرقاً وغرباً ، بما يكفل له – دون غيره – القدرة على اختراق الحصار الإعلامي المضروب حول القضية ، فالرجل طوال حياته لم يعش أبداً في برج عاجي كأستاذ جامعي وفيلسوف متخصص ، ولكنه كان مشغولاً دائماً بقضايا الساعة ، ولم يتردد في أية لحظة شعر فيها أن عليه أن يطرح رأيه كشاهد على العصر في صراحة ونزاهة ؛ وقد كلفه ذلك الكثير طوال حياته الفكرية الثرية ، ولكن بقيت له علاقته الفريدة بالقُرّاء في أنحاء العالم والتي تؤكدها تقارير دور النشر حول ترجمات كتبه وأرقام توزيعها التي وصلت إلى أرقام قياسية .

أما الأمر الثاني في تفسير الحملة – وهو الأهم – فهو تلك القدرة التي يتمتع بها الرجل على ربط أي موضوع جزئي يتناوله بتلك الرؤية الحضارية الكلية ، التي تبرز الطابع الاستعلائي المتمركز حول الذات الذي تتسم به الحضارة الغربية المعاصرة ، والتي يُعدُّ المشروع الصهيوني أحد أبرز إفرازاته وتجلياته ، وهو الأمر الذي يُفسِّر لنا قلق بعض الدوائر الغربية من كتابات جارودي بتحريض من مراكز القوة الصهيونية فيها .

ويكشف لنا تتبع المسار الفكري والروحي لجارودي عن نموذج واضح لأحد الظواهر المهمة في الفكر الغربي المعاصر ، ألا وهي ظاهرة نقد العديد من هؤلاء المفكرين " للرؤية الغربية المعاصرة للوجود " ، ومحاولاتهم الفكرية تشخيص وتجاوز أزمة تلك الحضارة .

ولقد تميَّز جارودي بالوعي المبكر بأن هذا التجاوز للأزمة لم يَعُد ممكناً من خلال الحلول الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمشكلات وأن الحل لن يكون إلا من خلال الإصغاء لتلك الرؤى البديلة الأكثر شمولاً والأكثر إنسانية ، والتي تعود بجذورها إلى حكمة الديانات والفلسفات القديمة لكل الحضارات الأصيلة عبر التاريخ ، والتي تحتل حضارة الإسلام – ولا شك – مكانها البارز بينها .

ولكن جارودي ليس مجرد واحد في سلسلة مفكري الغرب الذين "انجذبوا" وراء سحر الشرق ، كما لم يكن الإسلام عنده " هروباً رومانسياً نحو الغرابة " على حد قوله ، حيث لم يتضمن تطوره قطيعة كاملة سانحة مع كل خبراته الفكرية والوجودية السابقة ، بل تضمن ، بالأحرى ، عمليات معقدة لإعادة الهضم والتَمثُّل للعديد من العناصر الأصيلة الحية في تلك الخبرات ، كي تجد مكانها بطريقة جديدة في إطار النسق الفكري أو الرؤية الكلية التي أبدعها المفكر .

وبناءً على ذلك ، فإن الحاجة ماسة للتخلص من آفتين أصابتا العقل العربي في تناوله لمثل هذه الظواهر الفكرية المهمة ؛ أما الأولى فتتمثل في التناول الأيديولوجي الفج للظاهرة ، والذي يصبح جارودي (وغيره) بمقتضاه مجرد «مُحرِّف» للماركسية سقط في غياهب الفكر الغيبي ، وأما الثانية فتتمثل في تلك الدعاية الاحتفالية التي عادةً ما تصاحب إسلام أحد مفكري الغرب .. فالمسألة أعمق من هذا الموقف أو ذاك بكثير ، فنحن – في الحقيقة – بصدد حدث فريد يتعلق بخبرة تطور فكري وروحي نادرة ، ليس فقط من أيديولوجية لأخرى ، بل بالأحرى من مستوى الجدال الأيديولوجي المحدود إلى مستوى أكثر تجريداً وانفتاحاً هو مستوى التأمل في رؤى الوجود في الحضارات

الإنسانية عبر التاريخ .

ولعل أهم ما يُميِّز جارودي بين فلاسفة الغرب تلك القدرة الفريدة على تَمثُّل الآخر الحضاري وتَفهُّمه من الداخل وليس من خلال نظرة خارجية غربية المنظور . وهو ما يُفسِّر لنا تَعدُّد أُطره المرجعية لتشمل الحضارات الإنسانية كافة متجاوزاً المركزية الغربية ضيقة الأفق ، فإلى جانب كيركيجارد وماركس وبلوندل وجوته وسانتيانا من الدائرة الحضارية الغربية ، نصادف زرادشت والڤيدا والأوبانيشاد وبوذا ولاتزو من الدائرة الحضارية الآسيوية ، كما نصادف **كتاب الموتى** ثم اليهودية والمسيحية والإسلام . وهنا نجد بن عربي وجلال الدين الرومي وإخوان الصفا ... إلخ . كل هذا في سياق تطور فكري وروحي يحلل ويهضم ويتمثل في عملية خلاقة مستمرة تُعيد دائماً تركيب الرؤية الكلية للوجود من أجل تأكيد كل ما هو إنساني أصيل في الحضارات البشرية عبر التاريخ ومن أجل العودة إلى تعريف شمولي للإنسان يؤكد كل ملكاته ، وبوجهٍ خاص ملكة «التسامي» عما هو "وضعي" ، ملكة القدرة الإنسانية على الخلق المستمر وإبداع الممكن ، إبداع الحلم الإنساني المتجدد .

اكتشاف الآخر

وُلِد جارودي بمدينة مرسيليا الفرنسية في السابع عشر من يوليه عام ١٩١٨ لأبوين ملحدين في بيئة عمالية متواضعة ، وتفتحت عيناه على بوادر الأزمة الاقتصادية العالمية التي زعزعت الثقة في النظام الرأسمالي العالمي ، وعلى انتشار الفاشية في إيطاليا ووصول هتلر وحزبه النازي إلى سدة الحكم في ألمانيا . ووسط هذا المناخ من القلق والإحساس بعبثية الحياة قرأ كتاباً ظل الكتاب الأثير لديه طوال حياته ، **خوف وارتجاف** لكيركيجارد ، وتأثر بتأملاته

في واقعة إذعان إبراهيم لربه وإقباله بإيمان على التضحية بابنه ، " على عكس مناهجنا المحدودة ، يبقى القبول بكلام الله بلا قيد أو شرط المثل الهادي في مركز حياتي" . منذ هذه اللحظة تبلورت في عقله وروحه القضية التي ستشغله طوال حياته .. أن يصبح للحياة معنى .

وفي مقتبل شبابه المبكر اتخذ قرارين لم ير فيهما أي تناقض ، فقد اعتنق البروتستانتية في سن الرابعة عشرة ، ثم انضم إلى الحزب الشيوعي وهو في الثانية والعشرين أملاً في عالم أكثر عدالة وإنسانية عندما أصبحت الاشتراكية هي طريق الأمل الوحيد أمام قطاعات واسعة من الشباب الأوربي ، " لم أكن في يوم من الأيام ملحداً ، حتى عندما كنت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي .. فقد كنت في الوقت نفسه رئيساً للشبان المسيحيين البروتستانت ، إنتسبت للحزب الشيوعي كمسيحي " .

وفي العام نفسه الذي انضم فيه للحزب الشيوعي ، قرر جارودي الدراسة في جامعة رابندرانات طاغور حيث كان " مشبعاً بروحانية الهند " ، ورغم أن هذا القرار لم يجد طريقه للتنفيذ إلا أنه يكشف عن جذور التطورات الفكرية اللاحقة لجارودي ورؤيته التي تستبعد أي تناقض بين العقلانية والروحانية .

في الجزائر ، كان أول لقاء مباشر لجارودي مع الإسلام كمنظومة قيم ذات مصادر غير غربية ، ففي الرابع من مارس عام ١٩٤١ تزعم جارودي مظاهرة لخمسمائة من زملائه المناهضين لسياسة فرنسا والنازية في معتقلهم بجلفة جنوبي الجزائر ، وبعد ثلاثة إنذارات من قائد المعسكر لهم أصدر أوامره للجنود بإطلاق النار عليهم ، فرفضوا حتى بعد تهديدهم بالسياط ... لم يفهم

جارودي سبب رفضهم للوهلة الأولى ، ولكنه عرف فيما بعد أن هؤلاء الجنود كانوا من الجزائريين وأن شرف المحارب المسلم يمنعه من أن يطلق النار على أعزل .. وعرف يومها أنه أمام منظومة قيم متكاملة لها اعتبارها ، " كانت هذه أول مرة أتعرف فيها على الإسلام من خلال هذا الحدث المهم في حياتي ، وقد علمني أكثر من دراسة عشر سنوات في السوربون " .

منذ ذلك اليوم عكف جارودي على دراسة تلك الحضارة على الشاطئ الآخر من البحر ، وفي عام ١٩٤٦ وضع كتاباً بعنوان **الإسهام التاريخي للحضارة العربية في الحضارة العالمية** سرعان ما تُرجِم للعربية ونشره ضباط وطنيون مصريون في القاهرة . وبسبب هذه الدراسة ذاتها ومخالفتها للتوجه الفكري والسياسي السائد في فرنسا وأوربا آنذاك طُرِد جارودي من تونس .

منذ عام ١٩٤٥ أصبح جارودي ولسنوات طويلة عضواً في " الجمعية الوطنية " (البرلمان) في فرنسا ، وفي عام ١٩٤٧ تَقَدَّم بمبادرة لوضع **موسوعة النهضة الفرنسية** ، حشد لها أكبر مبدعي العصر حول يقظة الثقافة الوطنية الفرنسية التي أذلها الاحتلال ، وتوضح لنا منطلقات الموسوعة جوهر تفكيره آنذاك ، حيث كان يرى أن هذه الموسوعة الجديدة ، لا يجب أن تكون فحسب تركيباً للمعرفة الحالية ، ولكن تفكيراً في معنى وغايات البحث بوضعه في موضعه الصحيح من قضية المصير الإجمالي للإنسان وأن المهم ليس حشو أذهان الطلاب بالمعارف وتزويدهم بالمهارات اللازمة لإدماجهم في سوق العمل فحسب ، ولكن من الحكمة كذلك تأهيلهم للتأمل والتفكير بالغايات الإنسانية من هذه العلوم وتقنياتها . وقد شكَّل هذا المنظور أيضاً جوهر مشروع إصلاح التعليم الذي تولى جارودي الدفاع عنه في لجنة التربية الوطنية في فرنسا آنذاك .

وخلال جولته في أمريكا اللاتينية والوسطى عام ١٩٤٩ كانت أولى لقاءاته وجهاً لوجه بأصحاب الرؤى الفطرية للوجود ، تلك التي تتضمن جوانب مضيئة افتقدها البشر في العصر الحديث ، ولن ينسى أبداً قول أحدهم له : " ما من واحد منا كان يحس بأنه سيد الخلق ، أو أنه منفصل عن أمنا الأرض أو عن الشمس التي تخصبها ، ما من أحد كان يحس أنه سيد النباتات والحيوانات .. جميعنا نشكل جزءاً من الأمة نفسها ، من أصغر حشرة في الأرض إلى أكبر نجم في السماء .. لا شيء يوجد منعزلاً .. لم نكن أبداً في صراع مع الطبيعة " . وحتى ذلك الوقت كانت هذه التوجهات الثقافية الحضارية الجديدة محض إرهاصات لم تتبلور عنده بعد بشكل كامل ولم يكن قد تخلص من الجمود العقائدي بعد ، لهذا جاءت رسالته للدكتوراه بالسوربون حول «النظرية المادية في المعرفة» عام ١٩٥٣ " تركيباً مقنناً لما كان يكتب حينئذٍ في فلسفة العلوم في الاتحاد السوفيتي ، ولدى مفكري مختلف الأحزاب الشيوعية في العالم ... كان التوجه العام هو النظرية القائلة بأن المعرفة مجرد انعكاس للواقع " ، لدرجة أنه اعتبره فيما بعد أسوأ كتبه ، والوحيد الذي منع إعادة طبعه فيما بعد ، " لا عذر لي إلا التصور الخاطئ لـ «الروح الحزبية» التي تجعل من المشاركة في الأخطاء الفكرية للرفاق واجباً " .

ورغم اطلاع جارودي في ذلك الوقت على كتابات تسير في عكس هذا التأويل الضيق للماركسية مثل الدفاتر الفلسفية للينين و مخطوطات ١٨٤٤ وأطروحات ماركس حول الجانب الإبداعي الفعال في المعرفة وكيف أنها ليست مجرد انعكاس آلي للواقع ، إلا أن هذه الكتابات لم تساعده آنذاك على وضع مفهوم الانعكاس موضع الشك بشكل حاسم ، وهي المهمة النقدية التي سيقوم بها على أكمل وجه فيما بعد معتمداً على كتابات ماركس الشاب وهيجل وفخته

ثم جاستون باشلار .

وخلال الخمسينيات والستينيات كان رفض المركزية الغربية آخذاً في التبلور على المستوى السياسي تدريجياً ، وذلك عبر المناقشات الحادة التي دارت حول قضية «الخصوصية والعالمية» في تطبيق الاشتراكية ، حيث رفض جارودي تعميم النموذج السوفيتي للاشتراكية على كل المجتمعات في العالم باعتباره النموذج الأمثل الذي ينبغي تكراره واحتذاءه .

في هذا السياق دارت الخلافات حول حق يوغسلافيا في أن يكون لها نمطها الاشتراكي الخاص المسمى «بالتسيير الذاتي» ، وحول حق الصين أيضاً في أن يكون لها طريقها الملائم لتاريخها ومجتمعها وثقافتها ، وأخيراً كان الخلاف حول إدانة التدخل السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا .

وإزاء كل هذه المشكلات كان جارودي دائماً في صف مراعاة خصوصية كل مجتمع ومراعاة الخصوصية الثقافية للمجتمعات المنتمية لدوائر حضارية غير غربية . " لقد استطاع ماو ، الذي لا يجهل المنابع الغربية للاشتراكية ، أن يبني اشتراكية صينية بحتة ، من شأنها أن توسع من خبرتنا التاريخية : ذلك أن الجدل ليس هيجلياً فقط ، فمفاهيم كالين واليانج والطاو في إطار الثقافة الصينية يمكنها أن تولّد انفتاحاً عظيماً " . وقد بلور جارودي هذه الآراء الجديدة في كتابه **منعطف الاشتراكية الكبير** عام ١٩٦٩ ، وهو الكتاب الذي فجّر جدلاً واسعاً انتهى باتخاذ قرار بفصله من الحزب الشيوعي الفرنسي .

وقد تأكدت أهمية مفهوم «الخصوصية» عند جارودي مرة أخرى أثناء زياراته للجزائر ومصر ، ودراسته لعملية بناء الاشتراكية فيهما ، حيث أكد أن الاشتراكية – أو غيرها – لا يمكن إقامتها في العالم الإسلامي إلا على أساس

الإسلام ، عقيدة وثقافة .

وفي خِضم حركة الشباب الأوربي في مايو ١٩٦٨ ، أيقن جارودي أن ثورة الشباب هذه المرة لم تكن نابعة من أسباب اقتصادية - سياسية فقط ، بل كانت تعبيراً عن حدة القلق إزاء المشروع الحضاري الغربي كله .. مشروع النمو من أجل النمو دونما غاية أو معنى مفارق أبعد من ذلك . " لقد كانت الثورة تعني حتى ذلك الوقت الوعي بأزمات الواقع القائم ، بينما أصبح الأمر الآن يتعلق بالحاجة إلى نظام جديد للحياة كلها " وهو ما عبَّر عنه بوضوح في كتابه المهم **البديل** عام ١٩٧٢ .

وحتى هذا الوقت في نهاية الستينيات يحدد جارودي جوهر المسلمات الفكرية التي توصل إليها كما يلي :

- مسلمة المفارقة أو التسامي : الممكن يُشكِّل جزءاً جوهرياً من الواقع . الإنسان يكون دائماً شيئاً آخر وأكثر من مجرد مجموع الشروط التي أنتجته .
- يعمل الإنسان في الحاضر ، انطلاقاً من المستقبل ، انطلاقاً من الغاية ، وهذه المسلمة ترفض جميع الحتميات ، أياً كان نوعها مثالية أو مادية .
- المسلمة الأخروية : مسلمة البعث ، أي أن الإنسان لا ينتهي إلى الفناء ، وإلا أصبحت الحياة عبثاً ، ولكن حياة الإنسان هي نداء متجدد دائماً للروح التي فينا ، نداء متجدد بألا يكون حكمنا على الأمور انطلاقاً من الإنجازات الدنيوية الجزئية ، ولكن انطلاقاً مما وراء موت "الأنا الصغيرة"، بأن نضعها في موقعها ضمن شمولية تتجاوز حياتنا المحدودة لتضفي عليها المعنى الكلي .

استعمار التاريخ

منذ بداية السبعينيات يبدأ جارودي مرحلة جديدة حاسمة ، فبالرغم من انبهاره بالمنظور المختلف للثقافات والحضارات غير الغربية إلا أنها كانت لا تزال بالنسبة لـه شيئاً غريباً ، " حتى ذلك الحين لم أكن سوى أوربي ، ليس بالولادة فحسب ، ولكن بالثقافة وبطريقة الوجود . ولقد وعيت أنني كأستاذ للفلسفة كنت أمارس مهنتي دون أن أعرف شيئاً عن الفكر غير الغربي ، كنت أجهل كل شيء عن الفلسفة الصينية والهندية والإسلامية ، وعن رؤى أفريقيا وأمريكا اللاتينية للعالم والوجود " .

والحق أن مدخل جارودي للحضارات غير الغربية لم يكن مدخلاً معرفياً أيديولوجياً بقدر ما كان مدخلاً يختلط فيه جانبي الإيمان الصوفي والتأمل الجمالي في الوجود في الوقت ذاته ، فمنذ الخمسينيات والرجل يمارس التدريس في الجامعة كأستاذ لعِلم الجمال وفلسفة الفن ، وكماركسي مجدد جاء كتابه واقعية بلا ضفاف عام ١٩٦٤ ليُفجِّر نقاشاً واسعاً في الأوساط الأدبية والتشكيلية آنذاك ، عندما أعاد النظر في المفهوم الضيق الذي كان سائداً آنذاك حول «الواقعية» في الفن ، من خلال دراسة مبهرة أبرزت تلك النقلة الكيفية التي أحدثها كل من بيكاسو في الفن التشكيلي وكافكا في الأدب .

منذ ذلك الحين كانت الأقنعة الأفريقية تبهره بطابعها الأسطوري ، وتُومئ له برؤية مختلفة للوجود تختلف عن التقليد الغربي ، وبتشجيع من صديق سينمائي قررا اقتحام هذه الثقافة المغايرة لاكتشافها ، وخلال عدة شهور عكف جارودي على استيعاب أهم الكتب والفنون والأفلام الوثائقية والمتاحف

وأغاني الشعراء الأفارقة ، وفي أبريل ١٩٧٣ كانت رحلته لأفريقيا ، " عشنا في استمرارية الناس والأرض والحيوانات والأشجار ، وعلاقة أخرى بالعالم لم أعرفها من قبل " ، وفي النهاية خرج فيلم «ديونيسيوس الأسود» عام ١٩٧٤ الذي تلته تجارب سينمائية أخرى في فيلم «الخيال في السلطة» إضافة إلى مجموعة أفلام الحضارة الإسلامية وفنونها وجماليات المساجد فيها منذ عام ١٩٨٤ وما بعده .

ويُعبِّر الرجل عن التحول في رؤيته الفنية بعد هذه الخبرة قائلاً : " لم تعد تبهرني أشهر مشاهدنا في الباليهات الكلاسيكية التي كانت تبهرني بإتقانها التقني .. فالحيل الاصطناعية لبحيرة البجع أو للجميلة النائمة في الغابة لم تعد تنطق بكلمة من كلمات الحياة الحقيقية . وإنني لأعلم الآن ، بفضل أفريقيا ، ما هو الرقص كطريقة للوجود ، كفعل للحياة " . ومن هنا كان كتابه المهم **رقص الحياة** الذي كتب مقدمته بحماس بالغ الفنان العالمي بيجار . ولقد شمل الإنتاج الفني لجارودي إلى جانب ذلك ، ثلاث روايات ، هي **أنتيه** عام ١٩٤٦ ، و **اليوم الثامن للخلق** في العام نفسه ، ثم **من أكون في اعتقادكم** عام ١٩٧٨ .

ولعل المفهوم المركزي الذي نصادفه عند جارودي هو مفهوم «الحوار» ، تلك الروح المنفتحة على وجهات النظر الأخرى باستمرار ، وكان قد دخل في حوارات عديدة متواصلة مع رفاقه في الحزب الشيوعي منذ الخمسينيات كما أشرنا ، ثم أثار حوارات ثرية مع التيارات الفكرية المختلفة في فرنسا وأوربا ، بلورها في كتاب **نظرات حول الإنسان** عام ١٩٦٩ ، وذلك بالإضافة إلى الحوار الذي استغرق اثنى عشر عاماً وهو الحوار الماركسي – المسيحي .

إلا أن جارودي بعد هذه السنوات ، يُدرك أن كل هذه الحوارات " تظل إقليمية ، لأنها لم تكن تدور إلا بين من ينتمون لمنطقة ثقافية حضارية واحدة ، ألا وهي الغرب . وأنه ينبغي النظر إلى تلك الحوارات باعتبارها مجرد جزء من حوار أوسع بين الحضارات ، يمكن أن يحدث فيه إخصاب متبادل ، حوار يعرف كل طرف فيه كيف ينفتح على حقيقة الآخر دون أن يفقد ذاته " .

عند هذا المنعطف الجديد يُصدِر جارودي كتابه المهم **في سبيل حوار الحضارات** عام ١٩٧٧ إيماناً منه بأن المشكلات الكبرى للعصر أصبح من الواجب أن تُطرَح وتُحلَ على المستوى العالمي .. مشكلة معنى الحياة ، ومشكلة فناء البشرية نتيجةً للتطور المجنون للسباق النووي ، ومشكلات البيئة وتدمير الطبيعة ... إلخ .

في كتاب **في سبيل حوار الحضارات** يصل جارودي إلى أن جذور الحضارة الغربية نبتت في الشرق في حضارة مصر في أفريقيا وحضارة ما بين النهرين (العراق) في آسيا .

ومع هذا ، فإن حضارة الغرب تتمركز حول ذاتها باستعلاء يوشك أن يجر العالم إلى الهلاك بسلاحه النووي واعتماده على القوة الغاشمة وسيلة وحيدة لحل مشكلات العالم .

ويُلاحَظ أن روح الاستعلاء الحضاري الغربي هي التي كتبت التاريخ الرسمي بطريقتها الخاصة ، حيث عكست حقائق التاريخ وذهبت إلى أن الحضارة الغربية الحديثة هي حدث فريد في التاريخ يعود بجذوره إلى الإغريق ولا يمت بصلة إلى أية جذور حضارية شرقية . بل إن هذه الكتابة الرسمية المزيفة للتاريخ الحضاري ذهبت إلى عكس ما توصل إليه أناتول فرانس من

اعتبار معركة بواتييه " أسوأ يوم في تاريخ فرنسا ، عندما تراجع العِلم العربي والفن العربي والحضارة العربية أمام الهمجية الأوربية " ، وأصبح الأوربيون يُلقَنون منذ طفولتهم أن بواتييه كانت نقطة تحول إذ طردت " الهمج " من أوربا المتحضرة .. وهي الظاهرة التي أسماها أحمد بهاء الدين - بحق - «استعمار التاريخ» .

أما الحل ، فهو أن تدرك الحضارة الغربية حجمها الحقيقي بين حضارات العالم الأخرى ، وأن يقوم حوار بين الحضارات ، يتم خلاله تبادل المفاهيم والقيم والتجارب على قدم المساواة .

ولقد أحدث هذا الكتاب دوياً كبيراً ولقى المنظور الجديد المطروح فيه اهتماماً واسعاً ، الأمر الذي نتج عنه تأسيس جارودي للمعهد الدولي لحوار الحضارات في جنيف في العام نفسه ، ويمكن أن نوجز المبادئ الرئيسية لنشاط المعهد فيما يلي :

١ - ينبغي أن يكون لدراسة الحضارات اللاغربية المنزلة الأكاديمية نفسها ، على الأقل التي تحظى بها دراسة الحضارة الغربية .

٢ - ينبغي أن يحظى مبحث الجمال بالمنزلة نفسها على الأقل التي تحظى بها دراسة العلوم والتكنولوجيا .

٣ - ينبغي أن تحظى التأملات الاستشرافية - فن تخيل البدائل الممكنة للحياة المستقبلية والتفكير في الغايات اللانهائية - بالأهمية نفسها المعطاة للدراسات المكرسة للواقع القائم وللتاريخ .

مقاومة اللا معنى

بعد ذلك بعامين فقط ، في عام ١٩٧٩ ، أصدر جارودي كتاباً ضخماً متمماً للمشروع نفسه ، ألا وهو كتاب **نداء إلى الأحياء** ، بهدف التأكيد على أنه لا تزال هناك فرصة للحياة على وجهٍ آخر ، من خلال مراجعة انحرافات الحضارة الغربية التي تسير نحو طريق مسدود ، وهو طريق نشاز عن المسار التاريخي المتواصل للحضارات البشرية غير الغربية كلها عبر التاريخ . ويستعرض الكتاب الضخم بشكل تفصيلي حكمة الحضارات البشرية عبر التاريخ في مصر وبلاد ما بين النهرين والصين والهند ثم الديانات السماوية الثلاث .

ويُقدِّم أخيراً اجتهاداً للإجابة على السؤال : كيف يمكن الاستفادة من هذه الحكمة في إعادة صياغة مشروع سياسي ملموس لحل مشكلات الغرب عموماً ، وبالتطبيق الواقعي على المجتمع الفرنسي ومشكلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

كان الكتاب هو الأكثر توزيعاً منذ سنوات طويلة متجاوزاً منذ أسابيعه الأولى قمة المائة ألف ، وسرعان ما قرأه أكثر من مليون فرنسي قبل أن يُترجَم إلى أهم لغات العالم ، لدرجة أن حقوق المؤلف مكنته من تكريسها لتأسيس جمعية «نداء إلى الأحياء» و«شبكة أمل» في العديد من دول العالم ، والتي كانت في الواقع شبكات لمقاومة «اللامعنى» . كانت أشبه بحركة فكرية في مواجهة الاستغراق الساحق للمؤسسات والعقول في أيديولوجية النمو للنمو .

كانت هذه المرحلة تمهيداً منطقياً متدرجاً لمرحلة تالية ركَّز فيها جهده العلمي على دراسة حضارة الإسلام ، فأصدر في عام ١٩٨١ كتاب وعود

الإسلام ، الذي حاول فيه تصحيح الصورة المشوهة الشائعة عن الإسلام في الغرب ، " ليس المسلم ذلك (الكافر) كما حلا للصليبيين أن يسموه ، وليس ذلك " الإرهابي" كما سُمِّي خلال حرب التحرير في الجزائر ، وليس تحفة في متحف يتأملها مستشرق ... متسلح بأفكار مسبقة عن تفوق الغرب " ، ويُفند اتهام العقيدة الإسلامية بأنها عقيدة قدرية واتكالية ، بينما الواقع التاريخي يقول إنها العقيدة التي قادت المسلمين خلال فترة وجيزة إلى تجديد أربع حضارات كبرى ، وإلى نشر إشعاع حضاري غير مسبوق في نصف المعمورة .

ولكن انبهار جارودي الحقيقي بالحضارة الإسلامية إنما ينبع مما لاحظه من أن مبدأ التوحيد يُلقي بظلاله على مجمل مظاهر الإبداع الإنساني في تناسق تام في تلك الحضارة ، حيث يسودها منظور موحِّد بين العِلم والإيمان ، دون تمييز بين العلوم الطبيعية وظواهرها المادية من جانب وبين علوم الدين والفلسفة وسائر أشكال الفنون والإبداع ومظاهر الحياة الاقتصادية والأخلاقية من جانب آخر ، حيث لا حواجز ولا انفصال .

وهذا هو بالتحديد ما كان جارودي يفتقده في الحضارة الغربية المعاصرة التي يصفها بأنها " أول حضارة في التاريخ لا تقوم على أساس أي مشروع حضاري ، فمنذ عصر النهضة ، ومع تطور التجارة ثم الصناعة ، نالت جميع مظاهر حياة البشر ، الحياة الاقتصادية فالسياسية فالفكرية فالأخلاقية استقلالها الذاتي وانفصلت عن تلك الرؤية الكلية للوجود " .

وفي كتابه **الإسلام في الغرب : قرطبة عاصمة الروح** ، يُقدِّم جارودي دراسة تاريخية مستفيضة لتلك اللحظة التاريخية الرائعة للتفاعل الحضاري

المبدع بين الإسلام وأوربا المسيحية في الأندلس ، وكيف أن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن غزواً بقدر ما كان تحولاً ثقافياً عظيماً ، إذ وجدت المسيحية الموحدة لأريوس امتدادها المنطقي والطبيعي في الإسلام .

ويكشف جارودي عن مناخ الحرية الفكرية الذي ساد الأندلس آنذاك ، الأمر الذي أتاح الفرصة لظهور قمم شامخة كالقرطبي وابن حزم الظاهري وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن عربي ، كما يُوضِّح مشاركة غير المسلمين مثل الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون وغيره في ازدهار هذه الحضارة . وأخيراً يكشف عن الأثر الإيجابي لهذه الحقبة التاريخية على التطور في إسبانيا وجنوبي غرب أوربا بعد خروج المسلمين من الأندلس ، فيُشير إلى أن الشعر العربي هناك كان مُعلِّماً للغرب كما يتضح عند دانتي والتروبادور (الشعراء المتجولين) ، وأن كتاب ابن حزم **الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِحَل** كان هو الملهم لكتابات فيكو وهيردر ومن بَعدَهما في فلسفة التاريخ المقارن بعد أكثر من ستة قرون .

وبعد .. فإن جارودي هو آخر الفلاسفة الموسوعيين لعصرنا ، وصاحب واحد من أهم المشروعات الفكرية لإعادة حضارتنا المعاصرة إلى مسارها الإنساني الصحيح ، والشاهد الموضوعي على هذا القرن المليء بالأحداث الجسام ولكنه قبل هذا كله ، رجل الفكر والعمل .. رجل الموقف .

الإنسان والأسطورة واللامتناهي

د . عبد الوهاب المسيري ★

الشوق إلى النجوم

هناك رؤيتنان للعالم : واحدة تبدأ من المادة وقوانينها الرتيبة المطردة وتذهب إلى أن الإنسان ليس إلا كائناً طبيعياً مادياً ، لا يختلف عن الكائنات الأخرى ، يسري عليه ما يسري عليها من قوانين طبيعية حتمية ، ولذا فليست له أهمية خاصة في الكون . أما الثانية فتبدأ من معجزة الإنسان وتذهب إلى أنه يختلف بشكل جوهري وجذري عن الكائنات الأخرى (رغم وجود بعض السمات المشتركة بينهما) ولذا فهو يشغل مركز الكون . وبينما تؤكد الرؤية الأولى أصل الإنسان الأرضي ، وتتحدث عن تطوره من الأميبا والزواحف والقوارض والقردة العليا ، وعن عجزه عن تجاوز قوانين الحركة المادية ، تؤكد الرؤية الثانية أصله السماوي أو الرباني وتتحدث عن شوقه إلى النجوم وعن مسئوليته وحريته ومقدرته على تجاوز عالمه المادي ، وصولاً إلى قبة السماء واللامتناهي .

والمفكر الفرنسي رجاء جارودي ينتمي إلى دعاة الرؤية الثانية المتمركزة حول الإنسان . فهو يتحدث في كتابه **تطور فكر ماركس** عن «الحلم الفاوستي» ، أي محاولة الإنسان الوصول إلى اللامتناهي ، وعن الإنسان

★ أستاذ غير متفرغ بكلية البنات جامعة عين شمس ومؤلف **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد** ، ٧ أجزاء ، (دار الشروق ، يناير ١٩٩٧) .

باعتباره كائناً مسئولاً ، صاحب إرادة حرة ، لا يمكن فهم سلوكه إلا في إطار شوقه إلى اللامتناهي .

إن جارودي ، منذ بداية رحلته الفكرية ، قد نصَّب نفسه مدافعاً عن الإنسان ضد الظلم والزيف ، وضد تلك الحركات الفكرية التي تهاجمه وتحاول إنكار حريته ، بل ونفي وجوده ، والتي تصاعدت حدتها منذ منتصف الستينيات . ففي كتابه البنيوية ، فلسفة موت الإنسان يسأل جارودي : هل يقودنا موت الإله بالضرورة إلى موت الإنسان ؟ ويمكن طرح السؤال بطريقة أخرى : هل يؤدي اختفاء اللامتناهي إلى اختفاء الإنسان ؟

يقول جارودي إن الفلسفة البنيوية هي في جوهرها إنكار للتسامي ونفي للإنسان ، فقد جعلت من الإنسان مجرد نقطة تَقاطُع لعلاقات تتجاوز الإنسان ، بل إن الإنسان يصبح حادثاً عرضياً في تاريخ الكون ؛ مجرد مقولة فكرية من اختلاق فكر نهاية القرن الثامن عشر . ويواكب تضاؤل الإنسان تضخم مفهوم البنية التي تصبح جوهراً منفصلاً تماماً عن الممارسة الإنسانية . ويظهر التاريخ الإنساني باعتباره تاريخاً يتحرك من تلقاء نفسه بدون مبادرة إنسانية ، بل وبدون بشر . وينتهي الأمر بالبنيوية إلى أن تؤسس علوماً إنسانية تم إزاحة الإنسان منها ، إذ يذوب الإنسان تماماً في البِنَى المجردة المنفصلة عنه ، المتجاوزة له .

انطلاقاً من هذا الموقف المعادي للإنسان ، يذهب ألتوسير – البنيوي الماركسي – إلى أن الإنسان رهن بالظروف المحيطة به ، ويؤكد أن الماركسية العلمية (كما يفهمها هو) هي مذهب غير مكترث بالإنسان معادٍ للإنسانية (الهيومانية) وللتاريخ . ويصل هذا العداء للإنسان إلى قمته في أعمال المفكر

البنيوي ميشيل فوكو الذي يقول : " لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفي كل من لا زال يريد أن يتكلم عن الإنسان وعن ملكوته أو تحرره " . " فالإنسان ليس أقدم المشكلات التي تم طرحها على المعرفة الإنسانية ولا أكثرها ديمومة ... فالإنسان اختراع يبيِّن لنا علم آثار فكرنا ، بيسر وسهولة ، حداثة عهده وربما اقتراب نهايته . وسيضمحل الإنسان مثل نقش على رمال الشاطئ تمحوه أمواج البحر . بدأ العالم بدون الإنسان وسينتهي بدونه ، وما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الإله أو موته بقدر ما تتأكد نهاية الإنسان . " وهكذا يتم تفكيك الإنسان المتعين المسئول صاحب الإرادة وصانع الحضارة ليظهر بدلاً منه " فراغ الإنسان المختفي " . وهكذا ننتقل مع فوكو من عالم الحداثة والبنيوية إلى عالم ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية والتفكيكية (" بعد الحداثة " هذه التي تقيم الدنيا الآن وتشغل الناس في بلادنا العربية ، كأننا لا يشغلنا شاغل سوى تلقف ما يقوله الإنسان الغربي وتكراره بموضوعية ببغائية مذهلة ، حتى حينما يبدأ في صب لعناته على الإنسان بعد أن لهج بالثناء عليه والحمد له مئات السنين . ألم يكن من الأجدى أن نسأل لِمَ سادت البنيوية في الغرب في منتصف الستينيات ، ولِمَ انحسرت وسادت ما بعد البنيوية بدلاً منها في منتصف السبعينيات ؟)

يقف جارودي ضد هذا الهجوم الشرس على الإنسان ، ويرفض تصاعد معدلات العداء للإنسانية (الهيومانية) وللتاريخ والعقل في الفلسفة الغربية ، فيكتب كتابه واقعية بلا ضفاف ليؤكد مرة أخرى رفضه للحتميات المادية ، وليؤكد مرة أخرى العنصر اللامتناهي في الإنسان . ولذا فهو يختم كتابه باقتباس من بودلير " الشعر أكثر الأشياء واقعية ، وهو الشيء الذي لا تكتمل حقيقته إلا في العالم الآخر " ، ثم يُضيف قائلاً : " إن الفن الحقيقي طريقة

للتذكير باللامتناهي " . ثمة طموح نحو اللامتناهي داخل الإنسان يُرمز له ببرج بابل ، وطالما وُجِد الإنسان على الأرض فستكون هناك أيضاً تلك الرغبة المتأججة في بناء البرج .

قبر يكفي لدفن العالم

تتبلور رؤية جارودي وتتضح معالم خطابه في كتابه **في سبيل حوار الحضارات** ، وهو خطاب تفكيكي من الطراز الأول ، ولكنه ليس بتقويضي ، فهو يطرح البدائل ويُبشر بالمستقبل . يبدأ الكتاب بـ " مدخل " ، ويبدأ المدخل بجملة دالة مثيرة : "الغرب عارض طارئ " (وليس الإنسان كما تزعم البنيوية وما بعد الحداثة) . ثم يستطرد قائلاً : " إن الغرب استثناء ضئيل بائس في الملحمة الإنسانية التي دامت ثلاثة ملايين سنة ، وهي ملحمة بدأت في أفريقيا واستمرت خلال ستين قرناً في جميع القارات ، حتى عصر النهضة الغربي ... تلكم هي المصادرة الأولى في كل اختراع يتناول المستقبل " . فالمستقبل بالنسبة لجارودي هو مجال الحرية ، ولكن إن ظلت المركزية الغربية قائمة فإن أبواب الاجتهاد الإنساني تُغلق ، ويصبح المستقبل ، مستقبل الجميع ، مقرراً مسبقاً ، ويصبح مجال الحرية اللامتناهي قفصاً حديدياً حتمياً ، مثل قوانين المادة ، إذ تصبح مهمة البشر ، في كل أرجاء العالم ، نقل النموذج الغربي وتطبيقه إما بحذافيره أو بقليل أو كثير من التصرف .

ولكن ما هو هذا الغرب الذي اكتسب هذه المركزية ؟ يقول سيرج لاتوش في كتابه **تغريب العالم** إن الغرب لم يعد بقعة جغرافية ولا مرحلة تاريخية ، فقد أصبح آلة شرسة تدور لتهلك الجميع ، وضمن ذلك القائمون على إدارتها ، أي الإنسان الغربي نفسه . لا يختلف موقف جارودي عن ذلك كثيراً ، فالغرب

جغرافياً هو " مجرد شبه جزيرة من آسيا ، ملقاة خلف الأورال وعلى شواطئ المتوسط " ، أي أن الغرب الذي يهددنا ليس ماهية جغرافية ، وإنما " حالة فكرية " يحدد جارودي معالمها الأساسية فيما يلي :

١ – ينطلق الغرب من أن الفرد هو مركز الأشياء ومقياسها ، تحركه إرادة الربح والسيطرة والاستهلاك . وهدف هذا الفرد هو السيطرة على الطبيعة تقنياً . ولذا فعلاقة الإنسان بالطبيعة هي علاقة فاتح براضخ . وقد طوّر هذا الفرد إرادة الغازي الذي لا يتردد في اقتحام تخوم العالم المعروف أو تدمير القارات والحضارات ، وظهرت ديانة جديدة قوامها تحريض الرغبة تحريضاً دائماً .

٢ – واكب هذا الاتجاه نمو العقل المجرد أو المذهب العقلي ذي البُعد الواحد (العقل الديكارتي وعقل عصر الاستنارة) فتصور الإنسان أن العقل قادر على حل جميع المشكلات ، وأنه لا توجد مشكلات حقيقية إلا تلك التي يستطيع العلم أن يحلها . وأصبح هدف المعرفة هو الرقي بالعلم والتقنيات وظهرت العلمية (أي العلموية) والتكنوقراطية وكلتاهما لا يطرح سؤال لماذا ؟ (المختص بالهدف والغاية) وإنما يطرح سؤال كيف ؟ وحسب ، أي أنها ديانة وسائل وحسب ، ديانة أداتية بلا ضمير ولا قلب ولا تاريخ . وظهر الإنسان ذو البُعد الواحد الذي يُمجِّد العمل والفعل بشكل وحيد الجانب ، ولا يجد تحقيق ذاته تحقيقاً تاماً إلا من خلالهما (وهذا تقليد حضاري غربي شامل ، ينضوي تحته كل من الرأسمالية والاشتراكية) . ومن ثم ظهرت النفعية والوظيفية ، أما الأفعال غير النفعية ، تلك التي تفصح عن عفويتنا العميقة ، حركات الشعر والإبداع الحر ، فقد تم نفيها . في مثل هذا التصور الوحيد البُعد تُوجَّه طاقة

الإنسان إلى العمل النفعي وإلى الاستهلاك المستمر وينحل الفكر إلى ذكاء ، ولا يجد فيه الحب ولا الإيمان ولا الشعر مجالاً ، وتصبح التقنية هي مقياس الأشياء كافة ، ويصبح النجاح الاقتصادي (الإنتاج والاستهلاك) المعيار الأوحد .

٣ - أدّت هذه الحالة الفكرية إلى ظهور الفرد ذي البُعد الواحد ، الذي يأخذ شكلين متناقضين ولكنهما يشتركان في سمة أساسية ، واحدية البُعد :

أ) ظهر الإنسان المتأله ، الذي أصبح إرادة مطلقة والذي يحاول أن يصبح "سيد العناصر وربها" (كما قال الكاتب المسرحي الإنجليزي كريستوفر مارلو في مسرحيته **التاريخ المأساوي للدكتور فاوستوس**) والذي يحاول أن يتوصل إلى عِلم " يجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها " (على حد قول الفيلسوف الفرنسي ديكارت) . هذا الإنسان تسيطر عليه شهوة السلطة والتملك التي تستبعد كل الأبعاد الأخرى لشخصيته .

ب) ظهر الإنسان العادي الذي يشبه ترساً في آلة تطحن الإنسان وتقضي على سماته الفردية ، إنسان منضبط تماماً ، بيروقراطي ينفذ كل ما يصدر له من أوامر (وقد رسم كافكا صورته بشكل رائع في أعماله الروائية) . هذا الإنسان تعلّم الإذعان الكامل وأصبح موضوعياً بارداً ، وعملياً مرناً ، واستبعد من شخصيته كل الأشواق والأحلام والرؤى والمقدرة على التجاوز .

٤ - هنا يظهر جانب آخر للرؤية الغربية يسميه جارودي «اللانهائي الكمي» ، الذي يقف على طرف النقيض من «اللانهائي الكيفي» الذي يسمو

بالإنسان (وهذه توطئة لمفهوم جارودي عن الأسطورة الإنسانية المنفتحة مقابل الأسطورة الفاشية المغلقة ، كما سنبين فيما بعد) .

ويتبدّى اللانهائي الكمي في نظريات التنمية التي اكتسحت العالم الشرقي والغربي ، الشمالي والجنوبي ، والتي يُبشر بها البنك الدولي ، الذي لا يعرف شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً ، فالعالم بالنسبة له حيز بلا تاريخ ، مادة بلا ضمير أو روح ، مجرد مجال تتحرك فيه التقنية ورأس المال والبضائع دون اكتراث بالأفراد ، تماماً مثل حركة البنية في الفلسفة البنيوية ، ومثل عالم ما بعد الحداثة التي عرّفها البعض بأنها «نسيان نشط للماضي والتاريخ» .

انطلاقاً من هذا اللانهائي الكمي أصبح الإنسان الغربي يُعرِّف النمو باعتباره نمواً كمياً صرفاً في الإنتاج والاستهلاك ، بصرف النظر عن أية غائية إنسانية وبدون الرجوع إلى مشروع إنساني أو إلى صفة الحياة . ويصبح النجاح التكنولوجي هو المعيار الوحيد حتى لو كان نجاحاً مدمراً ، ويصبح التنظيم الاجتماعي الصارم هو وحده الهدف حتى لو أدّى إلى الاضطهاد والتفاوت . وانطلاقاً من اللانهائي الكمي ظهر الإيمان بإمكانية النمو اللانهائي للعلوم والتقنيات الذي يعني نمواً متصاعداً للسيطرة والربح والاستهلاك .

وانطلاقاً من هذا المنظور نفسه تعمل المجتمعات الغربية " كما لو أن كل ما هو ممكن تقنياً أمراً مرغوباً فيه ، ضروري ، سواء أكان ذلك صنع أسلحة نووية أكثر قوة باطراد ، أم صنع سيارات أو طائرات أكثر سرعة باطراد (حتى ولو لم يستهدف الذهاب بها إلى أي مكان) أم إطالة الحياة ذاتها أكبر قدر يُستطاع (حتى ولو كانت حياة نباتية خالصة تجعل المحتضر موضوع

عرض علاجي مسرحي وضحيته في آنٍ واحد) " .

وانطلاقاً من اللانهائي الكمي " تعمل المجتمعات الغربية المسماة «متطورة» تبع المبدأ الذي كان فيما سلف مبدأ المغالطين : خلق حاجات ورغبات تتصف بأنها مصطنعة إلى أبعد مدى ، ومؤذية أعظم الإيذاء ، من أجل اللجوء من ثم لإنتاج وسائل إروائها " .

وفي إطار اللانهائي الكمي يتم استبعاد أي مفهوم للتنمية الشاملة : تنمية إمكانات الإنسان الجسدية (نمو جسمه وقوته ومرونته) ، والإمكانات الفكرية (الابتكارات الإنسانية والإبداعات الأدبية) ، والإمكانات الروحية (العلاقات الأخوية وعلاقات الحب مع الآخرين) ، وإمكانات المشاركة الجمعية حيث يشارك كل امرء مسئول في مشاريع مشتركة ، وإمكانات بلوغ مستقبل مفتوح على آفاق لا نهاية لها ، وإسهام موصول للإنسان في هذا العمل المبدع الأوليّ الدائب الذي به يتكشف حضور الإله في الإنسان ، أو اللامتناهي في المتناهي». وانطلاقاً من اللانهائي الكمي تم تصنيف الشعوب والحضارات بحسب معيار وحيد ، وهو «التاريخ القومي» بالمعنى الاقتصادي المادي المباشر . وتم إنكار جميع الثقافات الغربية وهدمها ، وكل الطرائق الأخرى التي تتناول بالفكر والحياة علاقة الإنسان بالطبيعة وبالبشر وبالإله .

وهنا يكشف جارودي الغطاء عما يسمونه «التراكم الرأسمالي» (وما أسميه «التراكم الإمبريالي») : " إن شرط «نمو» الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربا وإلى أمريكا الشمالية ، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً " ... إن النمو والتخلف عنصرا منظومة واحدة ، وهي المنظومة الرأسمالية . وتراكم

رأس المال الأوليّ ، ثم الإنتاج الموسَّع تطورا خلال مراحل عدة : إبادة هنود أمريكا بدءاً من القرن السادس عشر - نخاسة العبيد السود التي أصبحت ضرورية لاستغلال المعادن - أراضي أمريكا التي قلّ سكانها نتيجة تلك الإبادة الجماعية - «الثورة الاقتصادية» (التي جعلها التكديس أمراً ممكناً) - «الحركة الاستعمارية» ، أي السيطرة السياسية والعسكرية على أفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين الاستثمارات ذات الريع الأعظم في الصناعة وفي التجارة ، وذلك بفرض السعر الأدنى على اليد العاملة ، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضاً بالقوة .

" وأخيراً ، ظهر استغلال العالم الثالث على نحو جديد بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها ، ومن ثم لم تبق علاقات الاستغلال ثنائية الجانب بين البلد المستعمِر ومستعمَرته . إن الشركات المتعددة الجنسيات ، وهي غريبة عن حدود الدول سواء في (الغرب) أو في سائر أنحاء العالم ، تُنظِّم نهب العالم الثالث ، لا على الصعيد القومي كما كان الأمر ، بل على الصعيد العالمي ، سواء بالاستناد إلى قوة عظمى (الولايات المتحدة مثلاً) من أجل توجيه اقتصادها وسياستها واستخدام جهازها العسكري (كما جرى في جواتيمالا أو في فيتنام) تارة ، أو باستخدام مؤسسات دولية في سنة ١٩٧٦ ، وهي تنهض داخلها بدور حاسم تارة أخرى " .

وتظهر الموضوعات نفسها في **وعود الإسلام** حيث يشير جارودي مرةً أخرى في بداية كتابه إلى أن " الغرب من منظور آلاف السنين هو أكبر مجرم في التاريخ " . ومرة أخرى نصل إلى " عصر النهضة " - هذا الاجتياح الغربي للعالم : " كل اجتياح ، كل سيطرة ، هو نكوص في تاريخ البشر " . كان المؤرخون عادةً ما يشيرون إليه باعتباره " غزوات البرابرة " . ولكن الأمر

اختلف تماماً مع عصر النهضة إذ أصبحت الاجتياحات «اكتشافات» عظمى . ومع ذلك ، فما أهمية أهرامات ٧٠,٠٠٠ من الجماجم التي شيَّدها تيمورلنك بعد الاستيلاء على أصفهان إزاء الإبادة الجماعية للملايين من هنود أمريكا التي قام بها الـ «فاتحون» الأوربيون ، المزودون بالمدافع ، وإزاء خراب أفريقيا بإبعاد ١٠ إلى ٢٠ مليون من السود من بلادهم ، استعباداً (وهو ما يمثل ، إذا حسبنا عشرة قتلى مقابل كل أسير ، رقماً من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مليون من الضحايا) ، وإزاء مذبحة آسيا ، من حرب الأفيون إلى المجاعات التي أودت بحياة ملايين الهنود بسبب تدابير الملكية وفرض الضرائب التي أُلزَموا بها ، ومن قنبلة هيروشيما إلى حرب فيتنام ؟

أي اسم يُطلَق على هذا الشكل من هيمنة الغرب العالمية الذي أنفق ٤٥٠ مليار دولار في التسلح عام ١٩٨٠ والذي سبَّب موت ٥٠ مليوناً من الكائنات البشرية في العالم الثالث نتيجةً للعبة المقايضات غير المتساوية ؟ "

إن فاوست رمز الحرية في الكتابات الأولى لجارودي يتحول هنا إلى " الرمز المأساوي لثقافتنا الغربية " ، فهذه الحضارة نهبت العالم وهدمت الحضارات ولكنها لم تأت بالسعادة أو بالاتزان للجنس البشري ، وينطبق ذلك على الإنسان الغربي نفسه . وقد كشفت لنا هذه الحضارة أنها تؤدي إلى التفكك والموت وأنها قادرة ، خلال أربعة قرون ، على أن تحفر قبراً يكفي لدفن العالم . ومن ثم أصبحت هذه الحضارة " مؤهلة للانتحار " الذي يتبدَّى في فقدان الهدف (الفرار إلى المخدرات – انتحار المراهقين بأعداد أكبر في الأصقاع الأغنى) ، وفي الإفراط في الوسائل (نضوب المصادر الطبيعية – التلوث – الطبيعة باعتبارها مستودعاً للنفايات ومعملاً لمعالجتها) .

مشروع الأمل

المعركة في الوقت الراهن – في نظر جارودي – لم تعد معركة بين الرأسمالية والاشتراكية ، فالاشتراكية (في التطبيق السوفيتي) تبنت أهداف النمو نفسها التي تبناها الغرب الرأسمالي ، ولذا أصبحت هي الأخرى ظالمة لشعبها ذاته ، مستغلة للعالم الثالث ، وشريكة في السباق نفسه إلى الهيمنة وامتلاك أسلحة الرعب . إن معركة عصرنا من ثم هي ضد الميثولوجيا الانتحارية لـ «تقدم» ولـ «نمو» على المنوال الغربي ، وضد الأيديولوجيا التي تتسم بالانفصال بين العلوم والتقنيات (تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة ، والحكمة (التبصر بالغايات وبمعنى حياتنا) ؛ وهذه الأيديولوجيا متميزة بإشارة متطرفة لفردانية تبتر الإنسان عن أبعاده الإنسانية .

ويشير جارودي إلى ضرورة أن يكون هناك " نظام اقتصادي عالمي جديد . ولكن لا يمكن أن يوجد مثل هذا النظام بدون نظام ثقافي عالمي جديد ، وجوهر النظام الثقافي العالمي الجديد هو الانتقال من الهيمنة الغربية إلى التشاور على مستوى الكرة الأرضية لإعادة تحديد مواصفات مشروع إنساني شامل – «مشروع الأمل» . فالحوار بين الحضارات أصبح ضرورة ملحة . إنه مسألة بقاء . ومهمتنا هي أن نعقد الحوار من جديد بين حضارات الشرق والغرب لكي نضع حداً لمنولوج الغرب الانتحاري " .

والانتحار – في معجم جارودي – مرتبط تمام الارتباط بالكفر ، وهي كلمة لها معنى محدد عنده ، فهو يُعرِّف الكفر باعتباره " النظر إلى الأشياء كما لو كانت مستقلة عما هو أصلها وغايتها ومعناها " . فالكفر ، من ثم (على سبيل المثال) هو رؤية السوفسطائيين القدامى الذين نظروا إلى العالم فلم

يجدوا سوى مادة تتحرك حركة لا معنى لها ، لا يمكن للإنسان أن يتحكم فيها أو أن يدركها ، وإن أدركها فليس بإمكانه أن يوصل إدراكه للآخرين ، فاللغة الإنسانية أداة غير طيعة بل ومعطبة ، وإن وصل الإدراك فلا فائدة تُرجى ، إذ أن النظرية لا علاقة لها بالممارسة . فالعالم في حالة سيولة مطلقة ، لا توجد فيه حقيقة أو حق ، إذ أن كل الأمور نسبية بشكل مطلق ! عالم شرير وزمان ردئ ، قبض الريح وباطل الأباطيل .

والسوفسطائيون في هذا لا يختلفون عن بعض الفلاسفة المحدثين ممن يُنكرون وجود هدف أو غاية عظمى في الكون ، إذ لا يوجد سوى " قصص صغرى " لا يربطها رابط ، أو بمعنى آخر لا يوجد سوى تفاصيل وعبث ، وأهداف مؤقتة . وإذا كان الفيلسوف القديم قد أكد لنا أن المرء لا يستطيع أن يستحم في النهر الواحد مرتين ، فإن الفيلسوف العبثي الحديث قد وضع مقدرة الإنسان على الاستحمام ذاتها موضع الشك ، أما نتيجة الاستحمام فهي ضرب من ضروب الغيب .

في مقابل هذه السيولة المعرفية والأخلاقية ، هذه النسبية المطلقة ، يضع جارودي الرؤية الإسلامية للواقع ، التي تنطلق من فكرة التوحيد والتي تعطي لكل حياة ولكل شيء معنى بالنسبة لعلاقته بالكل . وهذا التوحيد ليس توحيداً جامداً ، فالتوحيد الحقيقي هو " فعل من الله دائم الخلق ، فعل من النبي ، الذي بكلامه ، الموحى به من الله ، يكون ليس وحدة أو جملة ولكن فعل توحيد ، فعل تجميع ، فعل لكل إنسان يعي أنه ليس ثمة إلهي وحقيقي إلا الله ، وأنه في كل لحظة يربط كل شيء وكل حادث وكل عمل بمبدئه " .

وتتبدّى هذه الرؤية التوحيدية في فكرة أن الإسلام تسليم ، أي امتثال للإرادة الإلهية ، وأن كل الأشياء بمعنى من المعاني «موحِّدة» ، فمثلاً : الشجرة

في ازدهارها ، الحيوان في نموه ، الحجر في جماديته . لكن هذا التسليم لا يتعلق بها ، فهي لا تملك الإفلات من القانون الذي يحكمها ، فالإنسان هو وحده القادر على «نسيان» طبيعته الحقيقية . " قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسَى " كما قيل له في القرآن (سورة طه ١٢٦) . فهو يصبح مسلماً إذن بالاختيار ، وذلك بتذكره الشريعة الأولى ، شريعة التوحيد التي تعطي معنى لحياته ، وهو مسئول مسئولية تامة بما أنه يملك إمكانية الرفض .

ومن خلال التوحيد تظهر فكرة الجماعة المتماسكة المسئولة أمام الله ، والإنسان الحر المسئول المتسامي (الذي يحلم باللامتناهي) . والتسامي والجماعة/الأمة هما الإسهام الذي يستطيع الإسلام اليوم أن يقدمه لخلق مستقبل ذي وجه إنساني ، في عالم الأمر الواقع الذي يسيطر عليه نموذج جنوني للنمو . هذا الواقع الذي دمّر الجماعة وسوّد الحتمية المادية واستبعد السمو واللاتناهي فسقط في اللامتناهي الكمي وأصبح الإنسان جزءاً من بِنَى أكبر منه تنكر عليه حريته واستقلاليته ومسئوليته .

من الماركسية الفاوستية إلى التوحيد الإسلامي ، الموضوع ذاته ، والرؤية ذاتها ، والبحث الدؤب ذاته ، بحث لم يتغيّر عن المعنى والعدل ، فالإيمان بالبُعد اللامتناهي في الإنسان أصبح إيماناً بوجود الله خالقاً دائماً مستمراً في الكون ، إله يدعو الإنسان إلى أن يسمو وأن يتجاوز واقعه المادي .

حضور الإله

ولكن إذا كان الإنساني واللامتناهي متلازمين ، فإن الأسطورة تصبح عنصراً أساسياً في الوجود الإنساني . يشير جارودي في واقعية بلا ضفاف

إلى تعريف الأسطورة عند ماركس بوصفها وسيطاً بين البناء التحتي والبناء العلوي . وكلمة «وسيط» هنا هي بقايا المثالية الألمانية في خطابه ، والتي تحاول أن توجِد توازياً كاملاً بين الطبيعة والإنسان وبين الروح والمادة ، ومن ثم فهي تدخل بنا جميعاً في نهاية التاريخ والعنصرية وإرادة القوة ، أي في الطريق المسدود الذي أدخلتنا فيه الحضارة الغربية الحديثة . ولذا فهو يُسقِط هذا التعريف ليصل إلى تعريف أكثر رحابة يؤكد اللامتناهي ، فيُعرِّف الواقع الإنساني بأنه لا يقتصر على ما هو قائم ، وإنما ما سيكون عليه في المستقبل . فأحلام الإنسان وأساطير الشعوب هي خميرة المستقبل . الوسيط جامد لا يقوم بعمليات تحويل ، أما الخميرة فهي ، شأنها شأن الأحلام والأساطير، تتجاوز الواقع إلى ما وراء الواقع . ولذا فمهمة الأساطير العظيمة هي التذكير دائماً باللامتناهي وإثارة الرغبة في السعي إليه .

وفي **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** ينبهنا جارودي مرة أخرى لهذه الحقيقة ، فأساطير الإنسان الكبرى رسمت خطوط ملحمة الإنسان ، وعبَّرت بفضل سردها لبطولات الآلهة أو الأجداد الأقدمين عن اللحظات العظيمة في مسيرة هذا الإنسان ووعيه بقدراته وواجباته ورسالته في التفوق على واقعه المادي من خلال صورة ملموسة تولدت عن تجربته وآماله ، فهو دائماً يصبو إلى شأن أسمى لمستقبله تتحقق فيه كل أحلامه في السعادة والخلاص . الأسطورة لم تتولد عن التجربة الواقعية المادية وحسب ، وإنما عن الآمال والأحلام ، فحلم الإنسان بالسعادة والخلاص هو ما يعطي لحياته معنى وهدفاً وغاية . والغايات تلعب دوراً محركاً بقدر ما تلعب الأسباب (كما قال جارودي في كتابه **في سبيل حوار الحضارات**) فليست المسألة هي سبب ونتيجة (كما تؤكد الحتمية المادية) وإنما هي سبب وهدف وإرادة إنسانية ثم

نتيجة . ولأن خميرة اللامتناهي مكون أساسي في الإنساني ، فكل تاريخ مقدَّس (يومئ إلى اللامتناهي) هو «ضد التاريخ» (المادي الواقعي) ، وقد عبَّر أندريه مالرو عن الفكرة ذاتها حين قال : " كل أثر فني هو ضد القدر " ، أي أنه إبداع إنساني يقف في وجه المادة وقوانين الحركة الحتمية التي يمجدها الماديون رغم أنها تسحق الإنسان وتسعى بخطى حثيثة نحو خلق " فراغ الإنسان المختفي " ، فهي مثل دراكيولا أو فرانكشتين أو تلك الوحوش التي تزخر بها هذه الأيام السينما الأمريكية " التي حولت رؤية فوكو المرعبة إلى تسلية ، أو لسنا في عصر ما بعد الحداثة ؛ حيث يتم تطبيع الاغتراب وتسطيح الألم وتَقبُّل الأمر الواقع (والبنك الدولي وصواريخ الكروز) وكأنها أمور نهائية ؟

والتاريخ المقدَّس (لا التاريخ المادي الواقعي) هو التاريخ الحقيقي للبشرية ، أي تاريخ عظمة الإنسان وتطلعه إلى اللامتناهي . والأسطورة هي تعبير عن هذا التاريخ المقدَّس . انظر مثلاً إلى أسطورة أوزيريس ، رمز علاقات الإنسان بالطبيعة والآلهة : " إن (أوزيريس) إله مزَّقه خصومه ، ولكنه يُبعث عندما تجمع اخته (إيزيس) ، بدافع حبها ، أشلاءه المبعثرة . إنه إله يُولَد من جديد في كل صباح ، كالشمس ، بعد أن يجتاز مملكة الأموات . إله يعود في كل ربيع فيظهر مع ظهور النبات الجديد . وهو أخيراً إله يتخذ انبعاثه قانوناً كلياً للحياة ، وللطبيعة ، وللتاريخ " .

والفن المنبعث من هذه الأسطورة هو تعبير عن الإيمان بقدرة البشر وهي تميط اللثام عن حضور الإله ، تماماً مثل تلك الأهرامات التي يصفها جارودي بأنها : " قصائد حقيقية ، خيام مدهشة من الحجر الصوان ، صور عالم بناه الإنسان " . وإذا كانت حركة المادة والتاريخ الواقعي (الذي ينكر التسامي واللامتناهي) تكتسح الثوابت والأخلاقيات ، فإن الأسطورة/التاريخ

المقدّس تُولِّد منظومات أخلاقية خالدة . ويضرب لنا جارودي مثلاً على ذلك من **كتاب الموتى** الذي وردت فيه هذه العبارات التي يُردّدها الميت لحظة حسابه : " لم أجعل أحداً يبكي ، لم أسبب إيلام إنسان " . كما ورد وصف للإنسان الخيِّر باعتباره قد " أعطى الجياع خبزاً ، والعطاش ماءً ، وكسا العراة " .

حساب الأرقام الجنائزي

ولكن إلى جانب هذا الاحتفاء بالإنسان ، هناك التاريخ غير المقدّس الذي كتبه المنتصرون ، ولذا فهم لا يتحرجون من استخدام الأساطير لمصلحتهم عند الاقتضاء ومن ربطها بعجلة انتصاراتهم ، أي أن الأسطورة هنا تتحول إلى أداة في يد الغازي لقمع أحلام الإنسان وتطلعاته . ويضرب جارودي مثلاً على هذه الأساطير القمعية : أسطورة ماراثون وأسطورة معركة بواتييه بين شارل مارتل وكتيبه «فدائية عربية» ، وكلاهما ليس له أي أساس في الواقع التاريخي ، ولكنهما خُلِّقا تخليقا وأصبحا رمزاً لانتصار الحضارة الغربية على الآخر ، فالعالم هنا ينقسم وبحدة إلى الغرب واللا غرب ، أو كما يقولون بالإنجليزية «ذا وست أند ذا رست The West and the Rest» ، والغرب هنا هو الشعب المختار وبقية العالم شعوب منبوذة . ويبيِّن جارودي أن كلا الأسطورتين لا يُعبِّران عن اللامتناهي الكيفي الإنساني وإنما هي عملية تزييف لوقائع التاريخ لتمجيد الذات على حساب الآخر .

ولم يُطبِّق جارودي رؤيته للأسطورة على الحضارة الغربية وحسب ، وإنما طبقها كذلك على الظاهرة الصهيونية . وفي مجموعة من الدراسات أولها كتاب **ملف إسرائيل : الصهيونية السياسية** ، وثانيها كتاب **فلسطين أرض الرسالات الإلهية** ، وأخيراً كتاب **الأساطير المؤسسة لإسرائيل** (الصادر عام

١٩٩٦ وتمت ترجمته للعربية في العام نفسه) . ورغم أن هذه الدراسات متفرقة لكل منها إسهامها المهم ، إلا أنها تَصدُر عن الرؤية نفسها وتستخدم المنهج نفسه ، ولذا سنعتبرها وحدة متكاملة (وإن كنا سنركز على الأساطير المؤسسة لإسرائيل) .

وقد قام جارودي بتحديد نقطة انطلاقه ومنهجه ، كما حدد بصرامة بالغة سياق نقده للصهيونية ولمراجعته لبعض المسلمات الخاصة بالإبادة النازية لليهود :

١ – بيَّن جارودي أن اليهودية عقيدة دينية أما الصهيونية فعقيدة سياسية ، وأن إسرائيل التوراتية رؤية دينية أما إسرائيل الصهيونية فحقيقة مادية . وطريقة دراسة الواحد تختلف عن طريقة دراسة الآخر ، وما يقوم به الواحد لا يمكن أن يُنسب للآخر . فسياسة إسرائيل الداخلية المبنية على الإرهاب العرقي وسياستها الخارجية المبنية على العدوان والتوسع ، ليست بالضرورة أموراً نابعة من العقيدة اليهودية ولا تتمتع بأية قداسة .

٢ – يؤكد جارودي بما لا يقبل الشك تمييزه بين التوراة والتفسير الصهيوني لها ، " فنقد التفسير الصهيوني للتوراة والأسفار التاريخية (وبخاصة سفر يشوع ، وسفر صموئيل ، وسفر الملوك) ، لا يمس بأية حال من الأحوال التوراة وما جاء فيها من معتقدات دينية ... فتضحية سيدنا إبراهيم هي المثال الخالد على تفوق الإنسان على أخلاقياته العابرة وعلى منطقه الضعيف باسم القيم المطلقة . كما أن «الخروج» سيظل هو رمز التخلص من كل أنواع العبودية ، وعلى نداء الرب الذي لا يُقاوَم نحو

الحرية " . إن هذا الجانب من العقيدة اليهودية والتوراة هو تعبير عن اللامتناهي في الإنسان ، وعن المقدّس ، ولذا فجارودي يحتفي به ويضمه إلى الدلائل العديدة على عظمة الإنسان وتطلعه إلى الإله ؛ إنه تعبير عن الأسطوري بالمعنى الإيجابي .

٣ – يؤكد جارودي التزامه بالقيم الأخلاقية المطلقة ، فليس الغرض من كتابه (كما يقول) " القيام بعملية حسابية جنائزية " لعدد ضحايا الإبادة النازية لليهود أو " مسك دفاتر حسابية مؤلمة ومفجعة " ، فهذا يشكل سقوطاً في العقلية التكنولوجية والعقلانية المادية ، أي في «اللامتناهي الكمي» ، فقتل إنسان برئ واحد ، سواء كان يهودياً أو لم يكن ، هو جريمة ضد الإنسانية ، ولا مجال للنقاش في هذا .

٤ – يهاجم جارودي وبلا هوادة العنصرية الموجهة ضد اليهود ومحاولة الحط من قدرهم والدعوة إلى الحقد عليهم واضطهادهم ، ويخص كتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** بالذكر فيشير إلى أنه ندد به في كتابه **فلسطين أرض الرسالات الإلهية** باعتباره وثيقة مزيفة (وأسطورة قمعية) ويعبِّر عن أسفه لاستخدامه في بعض البلدان العربية .

٥ – يؤكد جارودي ضرورة الدراسة الهادئة للقضية ؛ ولذا فقد كان حريصاً كل الحرص على عدم تقديم أية أطروحة إلا وهي معززة بالمصادر .

٦ – يُبيِّن جارودي أنه لم يأت بالحقيقة اليقينية النهائية فكتابه لا يزال "عرضاً مؤقتاً " ، وهو ، " ككل تاريخ انتقادي وككل علم من العلوم ، قابل للمراجعة والتنقيح طبقاً لاكتشاف عناصر جديدة " .

ما يرفضه جارودي هو "القراءة الصهيونية القَبَلية والقومية للنصوص

اليهودية المقدّسة ، باختزالها الفكرة الهائلة لعهد الله مع الإنسان ، ومع كل الناس ، ووجوده في داخلنا جميعاً ، لاستنتاج أشر فكرة في تاريخ الإنسانية ألا وهي فكرة «الشعب المختار» الذي اختاره رب متحيز وجزئي (ومن ثم صنم) ، وذلك للتبرير المسبق لجميع أنواع السيطرة والاستعمار والمذابح . كما لو كان تاريخ العبرانيين أو التاريخ المقدّس هو التاريخ الوحيد في العالم " .

إن الهدف من الكتاب ليس أكاديمياً بارداً وإنما هي قضية حية ، " قضية الاستغلال السياسي من دولة لم يكن لها وجود عندما اقتُرفت الجرائم (النازية) ، وقضية المبالغة في أرقام الضحايا بصورة تعسفية لمحاولة إثبات أن معاناة البعض لا وجه لتشبيهها بمعاناة الآخرين وإضفاء القداسة عليها ، وهي محاولة لصرف النظر عن مذابح أشد قسوة . وأكبر المستفيدين من هذا هم الصهاينة ، الذين أظهروا أنفسهم بمثابة الضحايا دون سواهم ، وأنشأوا على إثر ذلك دولة إسرائيل ، ووضعوها فوق كل قانون دولي " .

إقامة العدل في الأرض

هذه هي القضية ، وهذا هو وحده الجديد بالدراسة ، ويؤكد جارودي أنه لم يدر بخلده قط فكرة تدمير دولة إسرائيل ، فكل ما يريده هو ببساطة أن يُبطل عنها صفة القداسة ، وأن يدعو إلى تجاوز النسبية الداروينية التي تكرس «علاقات الغاب» ، أي الأمر الواقع الذي نشأ من خلال «طلقات المدافع» . إن ما يطالب به هو إحقاق الحق وإقامة العدل في الأرض .

ويمكن إنجاز هذا المطلب الإنساني المشروع ، في حالة الشرق الأوسط ، عن طريق تطبيق القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة ، أي المجتمع الدولي ،

" وهي القرارات التي تستنكر وتمنع التوغل داخل حدود البلدان المجاورة والاستيلاء على مياهها ؛ والتي تنص على ضرورة الجلاء عن الأراضي المحتلة " . ويؤكد جارودي أن الاستمرار في إقامة المستوطنات داخل المناطق المحتلة بطريقة غير شرعية ، هو احتلال يجعل من المستحيل إحلال سلام حقيقي وتعايش سلمي ودائم للشعبين المتساويين والمستقلين ، وهو السلام الذي يرمز إلى الاحترام المتبادل ، دون ادعاء بملكية القدس ، أرض اللقاء بين الديانات الثلاث " .

الأمر واضح لا لبس فيه ، ونقطة الانطلاق نقدية ، تفكيكية تركيبية ، أخلاقية إنسانية ، ترفض العنصرية في كل أشكالها سواء كانت موجهة ضد اليهود أو الفلسطينيين ؛ فلا يوجد شعب مختار وشعوب منبوذة ، ومن وجهة نظر إسلامية لم يختر الله شعباً بعينه وإنما اختار كائناً بعينه وكرّمه وهو الإنسان وحجة الوداع ، آخر خُطب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليست موجهة للمسلمين فقط وإنما لكل الناس . ويشير جارودي في وعد الإسلام إلى قول الله تعالي " إن أكرمكم عند الله أتقاكم "

هذا هو الإطار العام وانطلاقاً منه يحاول جارودي تحطيم بعض الأساطير المغلقة التي تستند إليها الدولة الصهيونية :

١ – أسطورة الوعد :

تستمد أولى الأساطير ، أسطورة «الوعد» ، أصولها من الوعد الإلهي لإبراهيم في سفر التكوين . ومعظم المفسرين أخذوا الوعد المعطى للآباء بمعناه الكلاسيكي باعتباره إضفاءً للشرعية – بعد الأحداث – على الغزو الإسرائيلي لفلسطين ، أو امتداداً للسيادة الإسرائيلية في عهد داود .

٢ - أسطورة الشعب المختار والنقاء العِرقي :

تذهب الأسطورة الصهيونية إلى أن اليهود شعب مختار ، لم ينفتح على الآخرين فاحتفظ بنقائه العِرقي أو الإثني . ويُكذِّب التاريخ والواقع هذه الدعوى تماماً ، فالعبرانيون منذ استقرارهم في كنعان قد اختلطوا عِرقياً وثقافياً بالشعوب المحلية (بشهادة الكتاب المقدَّس ذاته) ، وعبر التاريخ اختلط أعضاء الجماعات اليهودية في العالم من خلال الزواج مع بقية الشعوب ، كما تم المزج كذلك عن طريق التحول الديني (التَهوُّد) .

وقد ولَّدت هذه الأساطير المغلقة سمة تعتبر من أميز سمات المستوطن الصهيوني وهي سمة «إبادة الآخر» . فواقع التطهير العِرقي الذي يُمارَس بشكل منتظم في دولة إسرائيل اليوم ، ينبع من مبدأ النقاء العِرقي الذي يمنع امتزاج أعضاء الشعب المختار بالشعوب الأخرى ، سواء من الناحية العِرقية أم الناحية الثقافية . ومبدأ التوسع والاستيطان هو ثمرة فكرة أسطورة الوعد . والترانسفير (أي طرد الفلسطينيين من وطنهم) هو النتيجة الحتمية للمنطق الداخلي للصهيونية .

ولعل هذا التشوه البنيوي الذي يسم الصهيونية هو الذي يفسر ما بينها وبين النازية من اتفاق ، ثم ينتقل جارودي بعد ذلك إلى الأساطير الصهيونية الخاصة بالإبادة ، وهذا ما سيتناوله الأستاذان بهاء طاهر وفهمي هويدي في مقاليهما . والله أعلم .

محنة جارودي أم محنة الإعلام ؟

بهاء طاهر ★

أحتفظ في بيتي بتسجيل تليفزيوني قديم يتحدث فيه رجاء جارودي أو ربما كان الأصوب أن أقول «يظهر» فيه جارودي . كان ذلك إبان الحملة الإعلامية الصاخبة التي صاحبت فتوى الإمام الخوميني بإهدار دم الكاتب سلمان رشدي ، وقتها امتلأت الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية بالأحاديث والندوات التي تهدف إلى إظهار مدى تخلف المسلمين عن ركب الديموقراطية الذي يترعرع – بطبيعة الحال – في الغرب ! .. وكانت الندوة – التي شارك فيها جارودي – أو دُعي للمشاركة فيها – معروضة في القناة الثانية في التليفزيون الفرنسي ، وتمثلت فيها كل «مظاهر» الديموقراطية .

كان هناك ضيوف مسلمون ومسيحيون ويهود ، ونجوم من أهل الفن والأدب والفكر إلى جانب جمهور عادي ، وحفلت الندوة بدروس كثيرة وغير مقصودة ، وسأقتصر هنا على حدثين يدخلان في صلب الموضوع ، أولهما عندما طلب مقدم الندوة من جارودي أن يبدي رأيه ، فقال إنه يستنكر فتوى القتل لأي كاتب ، ولكنه تساءل عما إذا لم تكن الديموقراطيات الغربية تصادر هي أيضاً بعض الكتب ، وضرب مثلاً بمصادرة كتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** ، مردفاً أن مصادرته مبررة لأنه كتاب مزيف ولكن هناك كتباً أخرى .

★ روائي ومفكر مصري ، آخر رواياته **الحب في المنفى** .

وهنا سحب منه مقدم الندوة الكلمة وأعطاها لمتحدث آخر ، قال جارودي : ولكني لم أكمل وجهة نظري ، فوعده المذيع بأنه سيعود إليه ، غير أن ساعة أو أكثر مرت والحديث ينتقل من شخص لآخر ، وكلهم يقولون الكلام نفسه عن حرية الفكر ، وكم هي مهمة ، ولكن أحد لم يعط لجارودي الكلمة ! انتهز الرجل لحظة صمت فذكر مقدم الندوة بوعده ، ورد هذا بسرعة «حاضر!» ثم تحدث إلى شخص آخر ، لم يبق أمام جارودي إلا أن يفعل ما فعله بالفعل : قام وانسحب من الندوة ، فلم يهتم أحد !

الحدث الثاني ، بعد انسحاب جارودي كان عندما أعطى مقدم الندوة الكلمة لواحد من الجمهور ، هو الوحيد الذي تحدث من القاعة الغاصة بالناس ، أشار بيده ، كأنما عفواً ، إلى شاب مميَّز تماماً بشعره الأحمر ، فقال هذا إن فتوى الخوميني عن سلمان رشدي تثبت أن الفلسطينيين إرهابيون وأنهم لا يستحقون الاستقلال ! .. كيف يا سيدي بالله عليك ؟ هنا بادر الشاب فلوَّح بصورة ضخمة كانت جاهزة (بالمصادفة طبعاً !) ويظهر فيها ياسر عرفات وهو يعانق الخوميني .

بدا على الشاب الزهو وعلى الجمهور الامتنان ، فقد قطعت الصورة قول كل خطيب !

الفرق بين الديموقراطيتين!

وبعد تلك الندوة المهزلة بشهور ، شاهدت على شاشة التليفزيون الفرنسي ذلك الشاب الأحمر الشعر نفسه : كان قد أصبح رئيس اتحاد الشبيبة اليهودية في الجامعات . قلت لنفسي إذن فهذا هو الفرق الحقيقي بين

ديموقـراطيـة الغـرب وديموقـراطيـة الشـرق : هـم هـناك يجـيـدون إخـراج التمثيليات .

غير أن جارودي يوضح لنا المسألة بتفصيل أكبر في الباب الثالث من كتابه الأخير **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** . فهو يفتتح القسم المعنون «اللوبي (الصهيوني – الإسرائيلي) في فرنسا» بعبارة للجنرال ديجول في نهاية مدة رئاسته لفرنسا يقول فيها : " هناك في فرنسا جماعة ضغط (لوبي) مناصرة لإسرائيل تمارس نفوذها بصفة خاصة في أوساط الإعلام " . ويذكر جارودي أن ديجول كان هو الرئيس الفرنسي الوحيد الذي جرؤ على أن يعلن ذلك ، ولكن لا يوجد من بعده أي مرشح للرئاسة في فرنسا ، مهما كان الحزب الذي ينتمي إليه إلا وقام بزيارة إلى إسرائيل لكي يحصل على رضا وسائط الإعلام ، ومع أن اليهود في فرنسا لا يمثلون سوى ٢٪ من السكان فإن الصهيونية تسيطر على أغلبية واضعي السياسات في الإعلام الفرنسي سواء في التليفزيون أو الإذاعة أو الصحف اليومية أو الأسبوعية ، بل إنهم يسيطرون على دور النشر جميعاً ، ويسيطرون على السينما أيضاً ، لا سيما مع غزو هوليود .

والدليل على ذلك كما يقول جارودي أن كل الصحف تتبع خطاً واحداً مناصراً لإسرائيل في تفسيرها للأحداث ، إذ تُسمي العنف الذي يمارسه الضعفاء «الإرهاب» والعنف الذي يمارسه الأقوياء (الإسرائيليون) «مكافحة الإرهاب» ، لا تشذ عن ذلك أية صحيفة ، ويقدم جارودي شهادة من تجربته الشخصية : فحتى عام ١٩٨٢ لم يكن يواجه أية مشكلة في إخراج كتبه في كبرى دور النشر أو في التعامل مع الصحف الرئيسية أو الإذاعة أو التليفزيون ، ولكنه في عام الغزو للبنان نشر مع آخرين إعلاناً مدفوع الأجر في

صفحة كاملة من صحيفة لوموند يندد فيه بالمذبحة في لبنان ويثبت أنها ليست مغامرة بل هي خطوة محسوبة في إطار السياسة الصهيونية .

تهديدات بالقتل !

ثم يضيف : " وبعدها تلقيت عن طريق الخطابات والتليفون تسعة تهديدات بالقتل " ، وبعدها أيضاً رفعت عليه منظمة «ليكرا» (اختصار اسم المنظمة الدولية لمناهضة العنصرية ومعاداة السامية) دعوى قضائية بتهمة معاداة السامية والتحريض على التفرقة العنصرية .

غير أن القضاء برأ ساحة جارودي وزملائه من ناشري الإعلان من المرحلة الإبتدائية إلى الاستئناف فالنقض ، ولكن ما من صحيفة نشرت شيئاً عن هذا الحكم بتبرئة جارودي وإدانة منظمة ليكرا ، التي يصفها الكاتب بأنها المنسق الرئيسي لنشاط اللوبي الصهيوني .

ثم بدأ بعد ذلك الحصار أو الخنق الإعلامي لجارودي في مجالات النشر والإذاعة والتليفزيون (راجع البداية !) ، وهكذا فإن أياً من دور النشر لم تقبل كتابه الأخير عن إسرائيل ، واضطر إلى طبعه على نفقته من خلال دار صغيرة مقيدة لا توزع كتبها إلا على المشتركين فيها (La Vielle Taupe) .

وبالرغم من هذا النشر المحدود الضيق النطاق للغاية فقد بدأت الحرب على الكاتب والكتاب ، بصورة أعنف من كل ما تعرض له من قبل ، كان جارودي قد مد يده إلى عش الزنابير مرتين من قبل ، وتقبل اللدغات راضياً أو كارهاً . ذلك أنه بعد حرب لبنان كان هو المفكر الغربي الوحيد تقريباً الذي احتج على تدمير العراق أثناء حرب الخليج . أما في هذه المرة الثالثة فقد

تجاوز بالفعل كل حد حين جرؤ - لا على انتقاد الأساطير السياسية الإسرائيلية وحدها ، بل وعلى أن يشير بإصبع الاتهام إلى أمريكا - والغرب في مجمله باعتباره المؤسس الحقيقي للأسطورة التي أصبحت كابوساً اسمه إسرائيل .

«كتاب عالِ متبحر» - الأب بيير

وليس في نيتي تلخيص كتاب جارودي ، فهناك فيما أعلم ترجمتان عربيتان صدرتا له حتى الآن ، سأشير إلى عناوين القضايا التي يتناولها وإلى نماذج محدودة لأسلوب استخدامه للوقائع ، ذلك أن المنهج في هذا الكتاب هو في رأيي سبب تفرده ، وهو سر الغضبة العارمة على جارودي من جانب أنصار الصهيونية .

ففي الباب الأول من الكتاب يتناول الأساطير المنسوبة لمصدر لاهوتي ، أي أسطورة الوعد ، وهل هي أرض موعودة أم أرض مغتصبة ؟ ويشير إلى أن القراءة الخاطئة لأسفار العهد القديم ، فضلاً عن الأخطاء التاريخية في تلك الأسفار التي نجمت بالضرورة عن تدوينها بعد وقوع الأحداث بقرون قد ولدا تلك المفاهيم الصهيونية الخاطئة في تفسير العهد مع إبراهيم (عليه السلام) على أنه وعد أبدي بأرض فلسطين لليهود ، وبأن اليهود هم شعب الله المختار ، ويضرب مثالاً للاستعلاء العنصري الذي يولده ذلك الاعتماد على الأسطورة بقول الحاخام كوهين في كتاب **التلمود** الصادر في باريس عام ١٩٦٨ " يمكن تقسيم سكان الأرض ما بين إسرائيل وبقية الشعوب مجتمعة ، فإسرائيل هي الشعب المختار وتلك عقيدة أساسية " !

ويوضح جارودي كيف يمكن لهذا الاستعلاء العنصري أن يفضي بسهولة إلى الجريمة فينقل من مذكرات مناحم بيجين ما جاء عن ارتكابه لمذبحة دير ياسين مع عصابة الإرجون لدفع العرب إلى الخروج من الأرض الموعودة وتخليصها للشعب المختار ويضيف أن التطبيق العصري لأوهام الماضي أصبح سياسة ثابتة ، ثم يعلق جارودي بقوله : " ومن هنا خطورة استغلال ماض أسطوري يوجه المستقبل إلى ما يمكن أن يكون انتحاراً كونياً " ، وذلك كما يرى بفضل التأثير الإسرائيلي على سياسة الغرب وبالذات على الولايات المتحدة باعتبارها القوة الكونية العظمى .

موقف مزدوج للصهاينة

ويواصل جارودي في الفصل الثاني من كتابه المعنون **أساطير القرن العشرين** دحض بعض الأساطير الأساسية للصهيونية : أولاً أسطورة معاداة الصهيونية للفاشية ، ويثبت أن موقف الصهاينة كان مزدوجاً ونفعياً أثناء الحرب العالمية الثانية ، فبينما حارب بعضهم مع الحلفاء ، فإن كثيرين منهم كانوا يرون أن النازية يمكن أن تساعدهم على إقامة وطن في فلسطين ، ومن هنا تعاونوا معها ، ويشير بصفة خاصة إلى إسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق ، وزعيم الليكود البارز ، الذي كان يتصل مع آخرين بمكتب المخابرات النازية في دمشق لتوطيد التعاون الصهيوني – النازي إلى أن ألقى الإنجليز القبض عليه في ديسمبر ١٩٤١ بتهمة «الإرهاب والتعاون مع العدو النازي» .

ثم ينتقل جارودي إلى الحديث عن أسطورة عدالة نورمبرج . ويشرح أن ما أعلنته تلك المحكمة منذ البدء من أنها تمثل مواصلة للجهود الحربية للدول

الحليفة ضد ألمانيا ، ينفي عنها أي مفهوم للعدالة الموضوعية . وينتقد إجراءات تلك المحكمة وشهودها وأحكامها . ويضرب مثالاً لا يقبل الطعن : فقد أدانت المحكمة النازيين بتهمة قتل ١١ ألف ضابط بولندي فيما يعرف بمذبحة كاتين . ولكن بعد ما يقرب من نصف قرن (في عام ١٩٩٠) ثبت أن السوفييت هم الذين ارتكبوا المذبحة .

وفي أخطر أجزاء الكتاب يناقش جارودي أسطورة (الهولوكوست) أو محرقة اليهود في معسكرات النازي . ويشكك في الرقم الرسمي المعتمد لضحايا النازية من اليهود (وهو ستة ملايين لا أقل) . ومرة أخرى يضرب مثالاً لا يقبل الطعن – فقد تعرضت بعض الأرقام الفرعية التخفيض بصفة رسمية : كانت اللافتة الموضوعة على معسكر أوشفيتس لاعتقال اليهود تقول إن الضحايا الذين لقوا حتفهم داخله في فترة الحرب أربعة ملايين معظمهم من اليهود .

ولكن اللجنة الدولية لدراسات معسكر أوشفيتس ، التي يرأسها يهودي ، قررت بعد الأبحاث تغيير اللافتة لتعدل عدد الضحايا إلى مليون ونصف .

– لماذا الملايين الستة ؟!

ومادامت الأرقام الفرعية قابلة للتعديل ، وما دام كل المؤرخين المتحمسين لإدانة هتلر لم يستطيعوا إثبات أنه أصدر أي أمر بتصفية اليهود عن طريق قتلهم فلماذا الإصرار على رقم الملايين الستة ؟

يقول جارودي بوضوح إنه لا ينكر أن هتلر قد ارتكب جرائم ضد اليهود غير أنه ارتكب ما هو أفظع منها ضد شعوب أخرى . ولكن تضخيم عدد ضحايا اليهود بشكل مبالغ فيه يهدف إلى إظهار أن معاناتهم لم يكن لها

مثيل ، ويفضي إلى أن تحقق دولة إسرائيل التي لم تكن قائمة وقت الحرب ، مكاسب سياسية ، فضلاً عن التعويضات المالية الباهظة التي حصلت عليها من ألمانيا ومن النمسا .

ويختتم جارودي الفصل الثاني من الكتاب بتلك الأسطورة التي نعرف عنها نحن العرب الكثير وهي أسطورة أن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب فذهبت إلى شعب بدون أرض !

وفي الفصل الثالث أيضاً يتحدث عن أسطورة نعرفها نحن جيداً ، وهي «أسطورة المعجزة الإسرائيلية» ، أي الدولة الصغيرة التي استطاعت في زمن قياسي أن تحقق التفوق العسكري على جيرانها العرب رغم كثرتهم العددية . ومنذ البداية يقدم التلخيص الفعلي لتلك المعجزة في عبارة بليغة لكاتب يهودي هو يشياهو ليببوفيتس إذ يقول : " إن قوة القبضة الإسرائيلية مستمدة من القفاز الفولاذي الأمريكي الذي يكسوها ومن الدولارات المحشوة فيها ! " .

وفي ختام هذا الكتاب القيم الذي اقتصرنا على عرض عناوينه يقول جارودي : " ليس لهذا الكتاب من هدف غير أن يطرح على الجميع تلك العناصر التي تتيح لهم أن يحكموا على أخطار الأساطير الصهيونية ، التي استطاعت بفضل ما تلقاه من دعم غير مشروط من الولايات المتحدة أن تثير خمس حروب ، والتي تشكل بسبب النفوذ الذي يمارسه اللوبي (الإسرائيلي) على الدولة الأمريكية ، ومن خلالها على الرأي العام العالمي ، تهديداً دائماً على وحدة العالم وعلى السلام " .

اللوبي في مأزق

تلك كما قلت لمحات سريعة جداً عن القضايا التي يتناولها الكتاب . ونحن في وطننا العربي نعرف ، بثمن فادح من الدماء مدى ما في هذا الطرح من صدق ، ونعلم بالقدر نفسه أننا نستطيع أن نكسب العالم إلى صفنا للأسباب التي يبيِّن جارودي بعضاً منها .

غير أن الجديد في هذا الكتاب هو المنهج الذي استخدمه جارودي ، فقد اختط منهجاً يحرج خصومه منطقه إلى أبعد حد ، ومن هنا بالذات سر ثورتهم عليه . فالمألوف بالطبع في الكتب العلمية أن يوثق الإنسان آراءه بالرجوع إلى المصادر الأصلية والمراجع ، وقد تحتوي الصفحة هامشين أو ثلاثة لإثبات تلك المصادر أما في هذا الكتاب فإن ما اعتدنا أن يكون الهوامش هو صلب الكتاب ، إذ يقدم أفكاره الرئيسية المتفجرة من خلال سلسلة لا نهاية لها من الاقتباسات تثبت من خلال تتابعها وبفضل تعليقات المؤلف الموجزة واللاذعة كل ما يريد أن يقول .

وأهم من ذلك بكثير أن الأغلبية الساحقة من تلك المراجع - أكثر من تسعين في المائة تقريباً - هي لكُتاب من اليهود أو الصهاينة أو الإسرائيليين ويكفي كمثال أن نثبت هنا قائمة المؤلفين والاقتباسات التي يرجع إليها في مقدمة الكتاب ، وهو يتابع بدقة تطور الفكرة الصهيونية منذ القرن الماضي كمشروع استعماري توسعي ، لا علاقة له حتى بالديانة اليهودية .

تشمل المراجع والاقتباسات في المقدمة ما يلي : صحيفة **واشنطن** بوست الأمريكية ، دائرة المعرف الصهيونية (نيويورك ١٩٩١) ، مذكرات وكتب تيودور هرتزل مؤسس المشروع الصهيوني (٧ اقتباسات متعاقبة) ، المؤتمر

المركزي للحاخامات الأمريكيين (١٨٩٧) ، النشرة الإعلامية اليهودية (يونيه ١٩٥٨) ، الكاتب اليهودي مارتين بوبر (١٩٤٨) ، الكاتب نورمان بنتويتشن : كتاب **من أجل صهيون** (١٩٥٤) ، العالم ألبرت أينشتاين ، الحاخام موشي مينوهين (١٩٦٩) ، المجلس الأمريكي للديانة اليهودية (مقتبساً في صحيفة **لوموند** الفرنسية ١٩٦٠) ، صحيفة **يديعوت أحرونوت** الإسرائيلية .

كل ذلك في صفحات المقدمة القليلة ، ويستمر المنهج ذاته عبر مئات من الاقتباسات والأسماء المختارة بعناية فائقة في فصول الكتاب جميعاً . ومن المؤكد أن ذلك الجهد العلمي الفذ هو الذي جعل الأب بيير يصف الكتاب بغزارة العلم والتبحر . والأب بيير واحد من أبطال المقاومة الفرنسية وأشهر نصير للفقراء في فرنسا ، وهو لهذا أكثر الشخصيات شعبية في فرنسا ، أو هكذا كان إلى أن جرؤ على هذا التصريح ! .. وتلك مأساة أخرى .

فإذا كان الأمر كذلك ، والأقوال في الكتاب أو معظمها هي أقوال الإسرائيليين وأصدقائهم ، موثقة في كل مرة بالتاريخ والصفحة ، فما الذي يمكن أن يقولوه للتشهير بالكاتب والكتاب ؟

يمكنهم القول بطبيعة الحال إنه أخطأ في فهم النصوص أو في تحليلها . ولكن هذا سيقتضي من نقاد جارودي أن يعرضوا أولاً القضايا التي يتناولها لكي ينقدوا بعد ذلك آراءه وتحليلاته . غير أن ذلك بالضبط هو ما قضوا أجيالاً من التعتيم والتزييف لكي لا يحدث .إذا ما اطلع الناس على نطاق واسع على وجهات النظر المناقضة لوجهات النظر الإسرائيلية ، وقد أقيمت عليها أدلة قاطعة فقد يتساءلون ويبحثون وقد ينحسر غسيل المخ الجماعي الذي قضى اللوبي الصهيوني في فرنسا وفي غيرها عشرات السنين لكي يحدث ولكي

تستقر الأكاذيب في أدمغة الناس .

– لم يبق إذن إلا قتل الكتاب إن لم يكن قتل الكاتب !

والسؤال هو : كيف ؟ .. وتحت يدي الآن مجموعة كبيرة من المقالات التي صدرت في فرنسا وفي كندا والولايات المتحدة وسويسرا توضح للدارس بكل جلاء ملامح خطة موحدة وشاملة لتلافي الآثار الممكنة للكتاب ولقتل جارودي معنوياً (على الأقل !) .

وسيتضح لكل إنسان أن هناك عقلاً مدبراً وراء هذه الحملة . (سواء كانت هي منظمة ليكرا أو غيرها فالأمر سيان) . ذلك أن كل المقالات تكاد تكون في الواقع مقالاً واحداً : تتبع منهجاً واحداً ، وتكرر الأفكار نفسها ، من الصحف الشيوعية في أقصى اليسار إلى الصحف اليمينية بل وحتى الفكاهية ! .. يبدو في جميع الأحوال أن الاجتهاد المتروك لأصحاب الأقلام هو صياغة الأسلوب ، أمّا الملامح العامة التي لم يخرج عنها أي كاتب فهي ما يلي :

١ – عدم التطرق مطلقاً إلى المضمون الفعلي للكتاب أو مناقشة منهجه أو القضايا التي يطرحها .

٢ – حصر نقد الكتاب في جزئية واحدة هي أن الكاتب يشكك في الرقم الرسمي المعتمد لضحايا النازية من اليهود ، وأنه يطعن في أحكام واستنتاجات محكمة نورمبرج (غير القابلة للطعن) !

٣ – اختيار اسم واحد من بين عشرات الأسماء التي اقتبسها المؤلف ، هو اسم المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفنج ، والتركيز على أن هذا المؤرخ (الذي لم يرد ذكره في الكتاب إلا مرتين في اقتباسين لا أهمية لهما) هو

مؤرخ من اليمين المتطرف وأنه قريب من النازيين الجدد ومعاد للسامية وأنه مرجع أساسي للكاتب .

وتكفي هذه الكذبة وحدها ، وتكرار اسم ديفيد إيرفنج من مقال إلى آخر ومن صحيفة إلى أخرى - لإثبات الطابع المنسق للحملة الذي صدرت فيه التوجيهات بكل تأكيد من منسق أعلى مجهول لتعميمه على كل وسائل الإعلام .

٤ - تلويث اسم جارودي وسمعته ككاتب ، بإظهار أنه شخص متقلب في أفكاره تحول من الشيوعية إلى المسيحية إلى الإسلام ، والتركيز بصفة خاصة على مسألة اعتناقه للإسلام ، مع الغمز بصفة مستمرة بأنه «متأسلم» Islaimiste ، وهو مصطلح يعني في فرنسا التعصب الديني ومعاداة الغرب والعداء للسامية (أي لليهود كيهود) .

٥ - التلويح باستمرار بسيف العدالة وبأن جارودي قد خرج على القانون والإشارة إلى أن هناك قضايا مرفوعة ضده استناداً إلى قانون جديد صدر منذ سنوات قليلة يُجرِّم نقد أحكام محكمة نورمبرج ، والتذكير بأن الكتاب ممنوع من التداول وبأن دار النشر التي طبعته محظورة (وهنا كذبة أخرى ، فدار النشر المذكورة مقيدة كما ذكرنا بمعنى أنها لا تطرح كتبها في السوق ، بل توزعها على المشتركين فيها ، ولكنها غير محظورة) .

٦ - فرض تعتيم على الكتاب والقضية خارج فرنسا ، والبلاد التي يمكن أن يصل إليها الكتاب رغم القيود المفروضة على توزيعه . وما كان لي أن أعرف تلك النقطة لولا أنني التقيت بكاتبين من كينيا والنرويج وفدا إلى

مصر مؤخراً في زيارة تتعلق ببحث القيود على حرية التعبير في العالم . وأدهشني أن أجد أن الكاتبين معاً لم يسمعا - مجرد السماع - شيئاً عن هذا الموضوع ولا عن حرية التعبير المقيدة في فرنسا ! ..

والخلاصة أن الإنسان يمكنه الآن بكل اطمئنان وراحة ضمير أن يجزم بأن حرية التعبير ضائعة في الشرق والغرب معاً خارج الفكر المؤسسي السائد .

أو هناك ما هو أفضل من ذلك الجزم - أن يجمع المثقفون في هذا الوطن شملهم ، وأن يعلنوا بصوت موحد وقوي وقوفهم إلى جانب جارودي وإلى جانب كل مفكر يقع ضحية للقمع والاضطهاد . وإذا ما فعلوها فسيجدون أن كثيرين في العالم متعطشون إلى سماع هذا الصوت وإلى العمل معهم يداً واحدة لضرب كل أشكال الإرهاب الفكري .

(**الهلال** سبتمبر ١٩٩٦)

جارودي في قفص الاتهام!

فهمي هويدي ★

كَفر جارودي بأكاذيب الدعاية الصهيونية ، وتصدى لفضحها ، فلاحقته اللعنة واستحق أن يُحكم عليه بالسجن . وكُفر من هذا القبيل لا يمكن اغتفاره في أوربا ، ولا يجرؤ أحد على الجهر به في الولايات المتحدة ، إذ لك أن تكفر بالله إن شئت وأن تنكر وجوده «على راحتك» ، لكنك في العالم الغربي لا تستطيع أن تنكر أن ستة ملايين يهودي أبادتهم النازية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية ، فتلك مقولة «مقدّسة» تستعلي فوق النقد والمراجعة ، ومن ثم لا يحق لمخلوق أن يناقشها بحجة إعمال العقل وحرية «الاعتقاد» أو التعبير أو غير ذلك من «حقوق الإنسان» .

حين فتح جارودي ملف «خرافات السياسة الإسرائيلية» في كتابه الذي صدر بالفرنسية قبل أشهر قليلة ، ويصدر بالإنجليزية خلال أسابيع ، فإنه انتهك المقدّس ووضع إصبعه في عش الزنابير . منذئذ لم يسلم من الاتهام والتجريح ، حتى قُدِّم للمحاكمة بتهمة العداء للسامية ونفي الجرائم المقترفة ضد الإنسانية . وتبنت الدعوى ضده منظمة تحت السيطرة اليهودية ، تحمل اسم «منظمة مكافحة العنصرية والصداقة بين الشعوب» . حوكم الرجل على «أفكاره» التي وردت في الكتاب ، التي لم تمس شيئاً من عقيدة اليهود الدينية ، وإنما ركزت على مزاعم الصهيونية ومشروعها السياسي الوحشي !

★ كاتب صحفي بعمل بجريدة **الأهرام** ، ومن أهم مؤلفاته **الإسلام والديموقراطية** .

التاريخ صار مقدساً

باستثناء عدد محدود من المثقفين الشجعان الذين تضامنوا مع جارودي ، فإن الجميع سكتوا على محاكمة الفيلسوف الكبير ، وفي المقدمة منهم منظمات حقوق الإنسان واتحادات الكُتّاب والهيئات العلمية والنخب السياسية . وهؤلاء هم الذين ما برحوا يحتفون بكاتب مثل سلمان رشدي الذي طعن في الإسلام ونبيه وبسطوا حمايتهم على كل من تهجم على عقيدة المسلمين وهتك مقدّساتهم ، بحجة أن ذلك دفاع عن حرية الرأي والتفكير والتعبير !

أُتيح لي أن أطلع على النسخة الإنجليزية المعدة للطبع من كتاب جارودي ، فوجدته من ثلاثة أبواب ، الأول يتحدث عن الخرافات أو الأساطير التي روجت لها الحركة الصهيونية مستندة إلى تأويل التوراة والعبث بنصوصها ، وأهمها ثلاث هي : خرافة أرض الميعاد (التي فصلت على فلسطين) وخرافة شعب الله المختار ، أما الخرافة الثالثة فهي تتعلق بنقاء العِرق اليهودي .

الباب الثاني عالج الخرافات التي أشاعتها الصهيونية خلال القرن العشرين ، وهي أربعة : أولاها الزعم بأن الصهيونية ضد الفاشية ، وثانيتها أن العدالة قد أخذت مجراها في محاكمات نورمبرج (التي اقتصت من رموز النازية الذين اعتبروا مجرمي حرب) . والثالثة هي خرافة الهولوكوست (الإبادة والمذبحة) . أما الرابعة والأخيرة فهي تتمثل في الترويج لمقولة : أرض بلا شعب لشعب بلا أرض (التي اتخذت ذريعة لاحتلال فلسطين) .

في الباب الثالث أجاب جارودي عن السؤال التالي : كيف وظفت

الأساطير سياسياً ؟ وهو يجيب فصل في الدور الذي يقوم به «اللوبي» الصهيوني في الولايات المتحدة ، وفي فرنسا . ثم تحدث عن شائعة «المعجزة الإسرائيلية» المعتمدة كليةً على التمويل الخارجي .

الباب الثاني هو الذي أزعج الدوائر الصهيونية لأكثر من سبب ، أولها لأنه كشف عن صور التعاون بين الحركة الصهيونية وبين النازية إبان الحرب العالمية الثانية ، أما أهمها فلأنه شكك في مزاعم الهولوكوست أو عمليات إبادة اليهود على أيدي النازيين . في هذا الصدد فإنه طعن في صحة أمرين جوهريين . أولهما أن اليهود هم الوحيدون الذين تعرضوا للاضطهاد في ظل الحكم النازي ، وقال إن ذلك لم يكن صحيحاً لأن الشيوعيين الألمان ومنظمات مقاومة الاحتلال النازي هي التي نالها القدر الأكبر من المظالم والعسف ، ولأن الأقليات غير الآرية تعرضت لمثل ما تعرض له اليهود وإن لم يتحدث عنهم أحد لقلة حيلتهم وضعف أصواتهم ، و«الغجر» من نماذج تلك الأقليات التي لحقتها الإبادة ونسيها الجميع .

الأمر الثاني الذي شكك فيه جارودي ، وهو أساس الدعوى المقامة ضده ، فهو أنه طعن في صحة رقم الملايين الستة التي تصر الحركة الصهيونية على أنهم أُبيدوا على يد النازيين ، قبل الحرب الثانية وبعدها . إذ ذهب إلى أن هذا الرقم مُبالغ فيه إلى حدٍّ كبير ، واستند في ذلك إلى بيان إحصائي بعدد اليهود في أوربا قبل الحرب وعدد الذين هاجروا منها ، وأثبت أنه يتعذر في ذلك البيان الإحصائي أن يُعدم ستة ملايين يهودي أوربي ، لأن الموجودين بأوربا في تلك الفترة كانوا أقل من ذلك بكثير . وقال في النهاية إن هناك من يصر على تضخيم أعداد اليهود الذين قُتلوا أو أُبيدوا في أوربا لإخفاء الجرائم التي قامت بها إسرائيل وما زالت تقوم بها في فلسطين .

في الوقت ذاته فإن جارودي شكك في مسألة أفران الغاز التي قيل إن ملايين اليهود أبيدوا فيها ، وذكر – اعتماداً على شهادات عدة – أن تلك الغرف أُقيمت بالفعل ، لكنها لم تُستخدَم أصلاً . النقطة الثانية والأخيرة هي قدس الأقداس ، ومن «الأصول» الدنيوية المفروضة على الخطاب الغربي .

ذلك أن محنة اليهود في ظل النازية لا تعامل بحسبانها حدثاً تاريخياً يمكن أن تتعدد فيه القراءة ويختلف بشأنه الاجتهاد ، وإنما هي أقرب إلى الحقيقة الدينية المطلقة التي تعتمد فيها الرواية الصهيونية وحدها . من ثم فإن روايتها تلك تبدو وكأنها نص إلهي مُنزَّل ، لا ترد فيه كلمة ولا يصحح فيه خبر إنه نص «قطعي» لا مجال فيه للظن أو التأويل !

لم يكن جارودي أول الذين غامروا بتجاوز الخط الأحمر وتفنيد المزاعم الصهيونية المتعلقة بعدد الضحايا ومُبالغات أفران الغاز . وإنما سبقه آخرون ، أصبحوا يشكلون طابوراً من المثقفين والباحثين الذين واتتهم شجاعة مماثلة ، وكلفهم ذلك الكثير ، فمنهم من ضاع مستقبله العلمي ، ومنهم من قطع رزقه وأغلقت الأبواب في وجهه ، ومنهم من أُلقي في غياهب السجون ... إلخ .

ملاحقات في كل مكان

هناك أكثر من سابقة في فرنسا ذاتها . فجيل السبعينيات يذكر قصة البروفيسور روبير فوريسون أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة ليدن ، الذي بحث طويلاً مسألة غرف الغاز ، وحقق الروايات المختلفة بشأنها على لسان العائدين من معسكرات الاعتقال والمحاربين . وانتهى من بحثه إلى أن مسألة غرف

الغاز بدعة غير حقيقية ، اصطنعها مخيلة العائدين الذين أرادوا أن يصوروا الناس هول ما رأوا ، ولكي يزيدوا من أهميتهم لدى ذويهم وأمام المجتمع ، أو لكي يكتسبوا تعاطف الناس غير أن الرجل ما أن جهر برأيه ذلك في كتاب أصدره ، حتى ثارت ثائرة الدوائر الصهيونية ، ولم تهدأ إلا بعد أن فصل البروفيسور فوريسون من الجامعة ، وتم اغتياله أدبياً وأكاديمياً .

في الثمانينيات تكررت القصة ، حين أعد أحد الباحثين «اسمه هنري روكيه ، رسالة للدكتوراه حول موضوع غرف الغاز ، نوقشت في جامعة «نانت» . واعتمدت الرسالة على تحقيق لشهادة أحد الضباط الألمان الذين استسلموا للفرنسيين ، وفي اعترافاته تحدث عن غرف الإعدام بالغاز القاتل وأساليبها في المعتقلات الجماعية النازية .

حقق روكيه هذه الاعترافات . وكشف ما فيها من تناقضات ومغالطات ، وانتهى إلى التشكيك في وجود غرف الإعدام بالغاز ، ومن ثم في كل النتائج التي ترتبت على فكرة وجود مثل تلك المحارق .

حصل روكيه على الدكتوراه بتقدير جيد جداً ، وظل الأمر هادئاً بعد ذلك لأن أحداً لم يعلم بالخبر ، وحين أجرى الرجل حواراً بثته الإذاعة ، تحدث فيه عن رسالته والنتائج التي توصل إليها ، قامت الدنيا ولم تقعد إلا بعد أن أُلغيت الرسالة وسُحبت الدكتوراه من الباحث الفرنسي – لأول مرة في تاريخ البلاد – بقرار من وزير التعليم العالي ، ثم فُصِل الأستاذ الذي أشرف عليها من عمله !

في ألمانيا تورط أحد قضاة مدينة هامبورج في عمل علمي مماثل ، إذ أصدر الرجل كتاباً في عام ١٩٨١ بعنوان أسطورة أوشفيتس (اسم أحد معسكرات الاعتقال الشهيرة في بولندا) . وهو دراسة قانونية فنَّد فيها كل

المعلومات التي تم تناقلها عن المعسكر ، وقال إن القصة حافلة بالاختلاق والأغاليط أحدث صدور الكتاب ضجة كبيرة في ألمانيا ، وأثار احتجاجات صاخبة من جانب اليهود . وأسفرت ضغوطهم عن قرار اتخذته جامعة «جريتنجن» بسحب شهادة الدكتوراه التي كانت قد منحتها له . وجاء في حيثيات القرار أن كتاب القاضي " انتهك الكرامة الإنسانية ! " ولم تكتف السلطات القضائية بذلك ، وإنما أصدرت أيضاً قراراً بخصم ١٠٪ من مرتب القاضي منذ صدور الكتاب في عام ١٩٨١ .

أغلقت ألمانيا باب الاجتهاد في الموضوع في وقت لاحق من عام ١٩٩٤ ، حين أقر البرلمان مشروع قانون فريد في بابه ، فرضته الضغوط الصهيونية ، ويتضمن بنداً يعتبر إنكار وجود معسكرات إبادة لليهود جريمة يُعاقب مقترفها بالسجن لمدة تصل إلى خمس سنوات !

في بريطانيا حملة مستمرة منذ عدة سنوات ضد الكاتب والمؤرخ ديفيد إرفينج ، الذي ما برح يؤكد بطلان مزاعم الصهيونية حول إبادة اليهود في أوربا . فالتظاهرات المعادية له تحاصر بيته في وسط لندن بين الحين والآخر ، وكتبه تُجمع من الأسواق أولاً بأول . والجاليات اليهودية تتعقبه حيث ذهب ، حتى أنها استصدرت حكماً بطرده من كندا التي دُعي إليها لإلقاء محاضرة عامة . وبعد وصوله اقتادته الشرطة وقامت بترحيله بعد أن أدانته المحكمة الكندية في تهمتي دخول البلاد بطريقة غير مشروعة ، وإصدار تصريحات مهينة لذكرى الموتى (اليهود بطبيعة الحال !) . وبسبب موقفه ذلك حظرت عليه أستراليا دخول أراضيها ، وقضت محكمة ألمانيا بتغريمه عشرة آلاف مارك !

في النمسا صدر حكم ضد الناشر جيرد هونسيك بالسجن لمد ١٨

شهراً ، لأنه نشر في مجلته هالت أن الغاز السام في معسكرات الاعتقال النازية ، لم يكن يُستخدَم إلا لإزالة الطفيليات والجراثيم من الملابس المتسخة ، وأنه لم يُستخدَم أبداً ضد الأشخاص . وقد توصل إلى تلك النتيجة بعد دراسة استمرت خمس سنوات لمختلف الوثائق وأفادت الشهود تمسك الرجل بوجهة نظره حين قدِّم إلى المحاكمة ، ولكن المحكمة قضت بأنه مذنب في ١٤ تهمة بخرق القانون النمساوي الخاص بتجريم نشاط النازيين الجدد ، والذي ينص على اعتبار نفي ارتكاب النازيين القدامى جرائم حرب ، جريمة بحد ذاته . وبناءً على ذلك قررت الحكم عليه بالسجن .

في الولايات المتحدة لم يصل الأمر إلى المحاكم ، لأن اليهود عالجوا الأمر بأنفسهم ، فلم تمر أيام معدودة بعد أن أعلن معهد إعادة دراسة التاريخ في كاليفورنيا عن إعادة دراسة موضوع غرف الغاز ، حتى هوجم مقره بقنابل حارقة أشعلت فيه النار وأغلقت الملف على الفور !

وحين تورط المؤرخ الأمريكي الدكتور بوتز وهو مدير معهد لدراسة التاريخ في لوس أنجلوس ، وقال إن مذبحة اليهود «مزعومة» ، وليس هناك دليل مقنع لإثباتها ، وتحدى أن يدفع ٥٠ ألف دولار لمن يستطيع أن يثبت أن يهودياً واحداً – فضلاً عن ستة ملايين – قد أُحرق في أفران الغاز النازية . ما أن أعلن عن ذلك حتى شب حريق كبير في معهده ، تسبب في خسائر مالية بلغت ٣٠٠ ألف دولار ، وأدى إلى إسكات صوت الرجل تماماً !

المؤرخة الأمريكية كريستينا جيفري ارتكبت خطيئة من نوع آخر ، فحين طُلب منها أن تُبدي رأياً في أحد البرامج التعليمية المقترحة لتدريس الهولوكوست للصفوف الثانوية ، قالت في تقريرها إن البرنامج يتبنى وجهة

نظر واحدة (الرواية الصهيونية) وأن وجهة النظر الأخرى في قضية المذبحة يجب أن تُذكر ، حتى يكون البرنامج متوازناً . وحين تسرب التقرير عوقبت السيدة جيفري على الفور بفصلها من عملها كمؤرخة بمجلس النواب الأمريكي ، ولم يغفر لها ما فعلت إلا بعد أن قدمت اعتذاراً على شاشة التليفزيون الإسرائيلي عما بدر منها ، وقالت إنه لم يخطر على بالها على الإطلاق أن تشكك في مسألة المحرقة وضحاياها .

أما أشهر حوادث العام الماضي ، فكانت قصة مجلة ماركوبولو اليابانية التي نشرت عشر صفحات وصفت فيها عملية المحرقة بأنها أكذوبة لا أصل لها ، الأمر الذي أثار عاصفة من الاحتجاجات الغاضبة من جانب اليهود في جهات الكرة الأرضية الأربع . وترتب على ذلك أن فسخت الشركات الكبرى عقود الإعلانات الموقعة معها ، وكانت فولكس فاجن الألمانية وميتشوبيشي اليابانية في مقدمة تلك الشركات . وقرر ناشر المجلة سحب النسخ الموجودة التي كانت تطبع ٢٠٠ ألف نسخة شهرياً عندما اشتدت الحملة ، وقدّم اعتذاراً علنياً لليهود عن الإساءة التي لحقت بمشاعرهم !

ابتزاز الغربيين وإشعارهم بالذنب

لماذا تلك القدسية المُبالغ فيها ، التي أحاطت بها إسرائيل مسألة المحرقة والملايين الستة التي تصر على أنهم كانوا ضحايا النازيين ؟

جارودي ذكر أن الحركة الصهيونية متمسكة بتلك الرواية لكي تغطي ما ارتكبته من جرائم بحق فلسطين والفلسطينيين ، ومن وجهة نظرها فإن شغل الغربيين الدائم بالفظائع التي ارتُكبت بحق اليهود مقصود به صرف الانتباه

عن فظائع الإسرائيليين في فلسطين . وهذا صحيح ، لكنني أضيف ثلاثة أسباب أخرى وثيقة الصلة ببعضها البعض : أولها إثارة تعاطف الغربيين مع إسرائيل وشعبها الذي كان ضحية للمحرقة ، وثانيها حرص الحركة الصهيونية على تعميق الشعور بالذنب لدى الأوربيين عامة والألمان بوجه أخص ، والثالث ابتزاز الألمان مالياً ومطالبتهم بدفع تعويضات لإسرائيل عن الجرائم التي تعرض لها الشعب اليهودي . ولو أن تلك الجرائم كانت محدودة ، وأن عدد الضحايا كان قليلاً ، لما كان هناك مبرر لمطالبة ألمانيا بتلك التعويضات الباهظة التي تعين عليها أن تدفعها لإسرائيل .

لقد روى الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه الأخير حول الاتصالات السرية بين العرب وإسرائيل كيف استثمرت إسرائيل قضية المحرقة بحيث بدأت بمطالبة ألمانيا بدفع تعويضات قيمتها بليون ونصف البليون دولار ، واستمر ابتزاز الحكومة الألمانية حتى دفعت ٦٠ بليون دولار لإسرائيل تحت ذرائع عدة ، مرة للتعويض عن أرواح الذين فقدوا ، ومرة تعويضاً عن ممتلكاتهم ، ومرة ثالثة لتغطية تكلفة توطين المهاجرين الجدد إلى إسرائيل .

والأمر كذلك أفلا يستحق أن تقاتل الحركة الصهيونية حتى النهاية دفاعاً عن روايتها لقصة المحرقة ، وتعتبرها نصاً مقدَّساً لا يجوز التخلي عنه ؟ !

إن جارودي ينتظر الآن نتيجة الحكم في القضية المرفوعة ضده والتي يطالب المدعون فيها بسجنه إزاء ذلك . فمن المهم للغاية أن يعلن العالم العربي والإسلامي ، المعني الأكبر بالقضية الفلسطينية ، تضامنه معه وتأييده له في موقفه الشريف من القضية . غير أنه من اللافت للنظر أن تُشن في العالم العربي حملة ظالمة ضد الرجل . في ذات التوقيت – تطعن في إسلامه وتجرح

اعتقاده ، حتى تتهمه بالضلال والكفر ، من جراء بعض التصريحات الملتبسة التي أدلى بها مؤخراً .

وهو أمر محزن ، أن تتزامن الحملة الإسرائيلية لاغتياله سياسياً ، مع تلك الحملة التي يثيرها البعض في العالم العربي لإخراجه من الملة واغتياله عقيدياً .

مؤسفة تلك المصادفة حقاً ، أما إذا لم يكن الأمر كذلك ، وتبيّن أن ثمة تدبيراً شيطانياً من أي نوع ، فإننا نصبح بصدد كارثة مفجعة لا ريب ! وفي كل الأحوال فالمسألة تحتاج منا إلى قدر من التأمل والتفكير والانتباه .

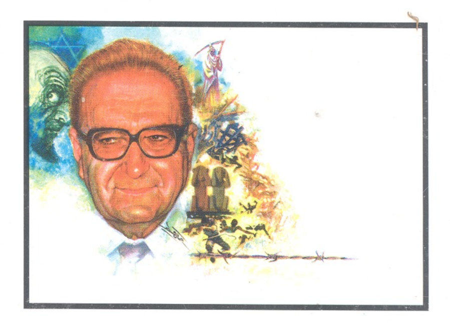
(**الأهرام** ٧ مايو ١٩٩٦)

أعمال جارودي التي ترجِمت إلى العربية

* الإسهام التاريخي للحضارة العربية في الحضارة العالمية ١٩٤٦
* النظرية المادية في المعرفة ١٩٥٣
* نظرات حول الإنسان ١٩٥٩
* واقعية بلا ضفاف ١٩٦٣
* من اللعنة إلى الحوار ١٩٦٥
* البنيوية ، فلسفة موت الإنسان ١٩٦٩
* منعطف الاشتراكية الكبير ١٩٦٩
* ألبديل ١٩٧٢
* مشروع الأمل ١٩٧٦
* في سبيل حوار الحضارات ١٩٧٧
* نداء إلى الأحياء ١٩٧٩
* وعود الإسلام ١٩٨١
* الإسلام دين المستقبل ١٩٨٢
* ملف إسرائيل : دراسة للصهيونية السياسية ١٩٨٢
* فلسطين ، أرض الرسالات ١٩٨٦
* جولتي في العصر متوحداً ١٩٨٩
* الإسلام في الغرب : قرطبة عاصمة الروح ١٩٩١
* حفارو القبور ، نداء إلى الأحياء ١٩٩٢
* الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ١٩٩٦
* حق الرد ١٩٩٦

رقم الايداع : ١٠٦١٥

sharif mahmoud



هذا الكتاب

جارودى أديب و فليسوف ومفكر فرنسى بارز ولد عام ١٩١٣ فى مارسيليا من اسرة متوسطة الحال ·· حصل على منحة الدولة لدراسة الفلسفة وانضم فى مطلع شبابه الى الحزب الشيوعى و تسبب ذلك فى اعتقاله وسجنه مرات ·· تم انتخابه عضوا بالجمعية الوطنية الفرنسية عام ١٩٤٥ ثم عضوا فى مجلس الشيوخ ثم رئيسا للمجلس الوطنى الفرنسى من عام ٥٦ الى عام ٥٨ ·

تولى إدارة مركز البحوث والدراسات الماركسية عام ١٩٦٠ تنبأ بسقوط الشيوعية مبكر ·· وبعد أن كان من أشد أنصارها إنقلب ضدها بشده ·

فى عام ١٩٨٦ أسس المعهد الدولى للحضارات وكان يعتبر أن الحضارة الغربية إستنفذت اغراضها بدأت أنوار الإيمان تسطع على عقله وقلبه منذ مطلع الثمانينات ويعتبر كتابة » دعوة الاسلام « الذى صدر عام ١٩٨١ نقطة تحول رئيسية فى فكرة اكد أن الاسلام هوالخيار الوحيد أمام البشر للخروج من المأزق ·

